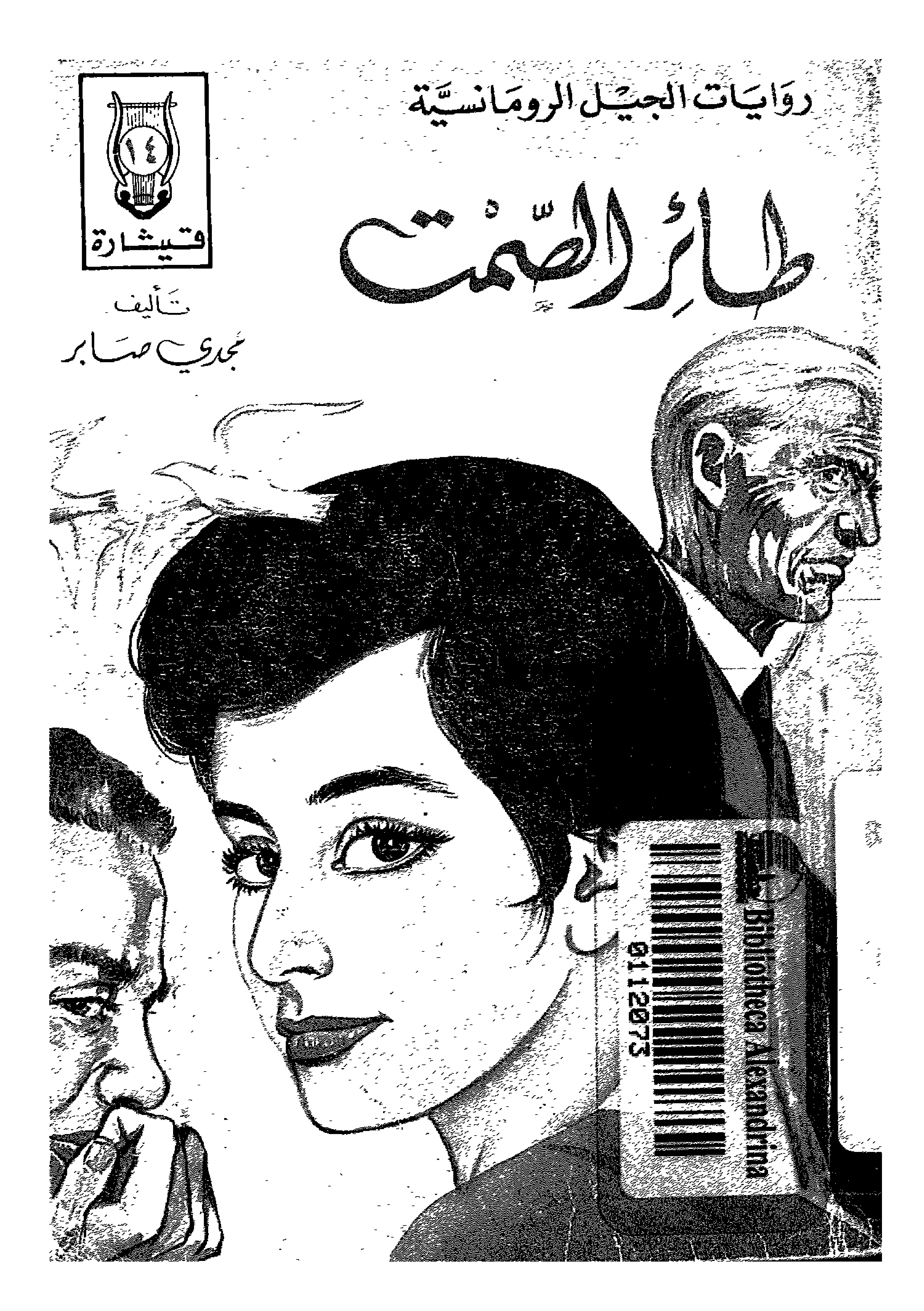
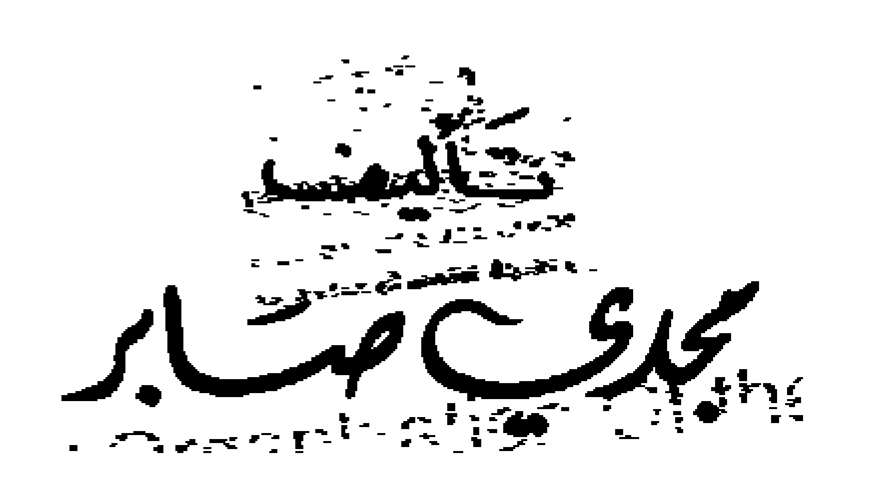

روايات الجيل الرومانسيّة
١٤
قيثارة
طائر الصمت
تأليف
مجدي صابر

طائر الصّمت

قيثارة ١٤

روايات الجيل الرومانسية ١٤

طائر الصمت



دار الجيل
بيروت

الطبعة الأولى
١٤١٣هـ - ١٩٩٣م

«العودة»

كـان الزحـام في صـالة الوصـول عـلى أشـده. . وركّاب ثلاث طائرات يغـادرونهـا دفعـة واحـدة. . ومستقـبلوهم من الأقـارب والأصـدقـاء قـد وقـفـوا في تلهف يتـمعنون في القـادمين . . ومن لمح قـريباً أو صـديقـاً اندفع اليه يحتـضنه في شوق ولهفة.

وحدق نظمي بك في القـادمين دون أن تخالجه مشـاعر توتر أو اضطراب . . وعيون مساعديه ومديري شركاته قـد أصابها برود انتقل منه إليهم .

وعندمـا ظهر أخيراً ذلك الشـاب الأنيق الوسـيم الذي يدفع أمامـه بعربة حقائب قـد امتلأت عن آخـرها بحمـولتهـا ، ابتسم نظمي بك ابتسـامة صغيرة وخطا مخترقاً السياج الحديدي

بالرغم من الاحتياطات الأمنية المشددة قبل أن يتمكن رجال الشرطة المختصون من منعه.

كان يتصرف دائماً بمنطق نفوذه القوي . .

واحتضن نظمي بك الشاب الوسيم في سعادة هاتفاً : حمداً لله على سلامتك يا دكتور عصام.

فأغمض الشاب الوسيم عينيه واستكانت رأسه فوق كتف والده، كملاح جاب الآفاق وحط أخيراً على شاطئ الأمان.

وحدق نظمي في ملامح ابنه كأنه يبحث عن شيء ما ثم قال : لَكم تغيرت يا عصام . . لم أكن أظن أن ثلاث سنوات في أمريكا يمكن أن تغيرك بهذا الشكل . . أم أن الدكتوراه التي حصلت عليها هناك غيرت حتى ملامحك؟

وعاود احتضان ابنه . . فربت الابن على كتف والده في إشفاق قائلاً : كيف حالك يا أبي؟

زم الأب حاجبيه كما اعتاد دائماً كلما أراد إظهار عدم رضاه وقال :

- كما ترى . . لست في أحسن حال.

قال عصام ضاحكاً : ولكني سمعت من الكثيرين أنك صرت من أكبر رجال الأعمال وأن ملايينك تضاعفت.

وكذلك إمبراطورية السوبرماركت التي تديرها، حتى أنهم أطلقوا عليك اسم ملك السوبر ماركت في مصر.

قال الأب مدارياً إحساسه بالتفوق:

ـ ما فائدة المال.. وأنت غائب عني في بلاد بعيدة.. لقد كنت أحاول أن أشغل نفسي بجمع المال، حتى لا تقتلني الوحدة..

وزم الأب شفتيه قائلاً: ولكن الآن وبعد أن حصلت على الدكتوراه في الاقتصاد فلن تبتعد عني لحظة واحدة.. وسوف تشرف بنفسك على كل أعمالي.. فقد آن لي أن استريح قليلاً.

لم ينطق عصام بشيء.. فقد اعتاد دائماً أن ينفذ كل أوامر والده.. حتى عندما كانت تفصلهما آلاف الاميال.

وتحرك الاثنان.. وهما يدفعان عربة الحقائب أمامهما.. وأقبل موظفو نظمي بك ومدير أعماله يهنئون عصام بسلامة الوصول ويدفعون عربة الحقائب عنه.. وربت نظمي بك على كتف عصام قائلاً في فخر لموظفيه: لقد كان ابني فخراً لكل المصريين والعرب في أمريكا، فهو أول طالب أجنبي هناك يحصل على الماجستير والدكتوراه في الاقتصاد خلال ثلاث

سنوات فقط، وقبل أن يتم السابعة والعشرين من عمره. . وبعد الآن لن يناديه أحد إلا باسم الدكتور عصام.

فاكتست وجوه الموظفين بالابتسام، وراحوا يطنبون في مدح مواهب عصام كأنهم جوقة منشدة، ونظمي بك قد انتفخت أوداجه في فخر عظيم، كأنه هو من حصل على الدكتوراه.

واستقر الجميع داخل عدد من السيارات الحديثة الفاخرة التي شقت طريقها في قلب القاهرة، وقد تلألأت الأنوار على جانبي الطريق في بانوراما فاتنة تبدع عاصمة المعز في أبرزها دائماً، كلما حل الليل بهدوئه وشموخه.

وألقى عصام ببصره خارج السيارة وهو يتطلع إلى كل ما يمر به عبر الطريق في اشتياق، كأنه يعانق الأشجار والطرقات والناس. . فسأله والده ضاحكاً: هل أوحشتك مصر؟ فالتفت عصام إلى والده قائلاً: أنا لا أحسب هذه السنوات التي غبتها عن مصر من عمري. . إنك لا تدري يا والدي كم أوحشتني القاهرة بشوارعها وأحيائها وناسها. . وحتى بضوضائها وضجتها. . أوحشني كل شيء فيها. وكنت أتعذب كل يوم ألف مرة تلهفاً واشتياقاً للعودة.

زم الأب شفتيه في احتجاج قائلاً: لا يمكن أن تكون

القاهرة قد أوحشتك وأنت في بلاد كأمريكا . . إنني أفكر في التقاعد هناك ولكن بعد سنوات بعيدة .

قال عصام في لهجة من صقلته التجربة :

ـ قد تكون أمريكا أكثر حضارةً ورقياً ـ . شوارعها أنظف وصخبها أقل . . وعمائرها ناطحات سحاب ، وأهلها من اصحاب الملايين . . ولكنها لم تكن هي بلدي وناسها ليسوا أهلي . . إنك يا أبي لا تستطيع أن تستخرج سمكة عاشت في النهر الدافئ وتطلب منها أن تتمتع بالحياة في المحيط الواسع البارد . . إنها قد تموت بسبب ذلك برغم اتساع الحياة داخل المحيط .

فرمق نظمي بك ابنه في صمت كأنما أدهشه ما قاله . . ثم تساءل مقطباً : وأنا . . هل أوحشتك أيضاً؟

فاحتضن عصام كفّي والده بين أصابعه ، وقبّل رأسه في اشتياق وهو يقول : كيف تسأل مثل هذا السؤال يا والدي . . وأنت قد صرت لي ليس الأب فقط ، بل الأم والأخ والصديق أيضاً . . وإذا كنت قد افتقدت أصدقائي وبلدي فكيف كان يمكن ألا أفتقد أبي أعز الأحياء لي؟

فامتدت ذراع الأب تطوق الابن في حنان وهز رأسه في

رضـا . . ثم همس في لهـجة حـزينة دون أن تطوف أي دمـوع في عينيه : غداً صباحاً نذهب إلى المقابر لقراءة الفاتحة على روح والدتك . . وبعـدها نسـافر إلى الإسكندرية لقـضـاء بضعـة أيام على الشاطئ هناك .

وعندما تذكـر عصام أمه أشـعلت عينيه دموع سـاخنة جاهد ليكبتها . . إن الأم لا يعوضها أي شيء آخر في العالم . .

لا أب ولا أخ ولا حـتى حبيبـة . . فكيف بأم حـرمه القـدر من أن يلقي عليها حتى النظرة الأخيرة وهي تصارع المرض؟

وتوقـفت كل السيـاراتِ أمام عـمارة ضـخـمـة مكونة من عشرين طابقـاً ، وقال الأب في فخر : لقد شيـدت هذه العمارة خلال عام واحد فقط . . وربحت فيها أكثر من خمسة ملايين جنيه بعد أن بعتها .

وأكـمل ضاحكـاً : هذا بدون أن أحصل عـلى دكـتوراه في الاقتصاد . . ولا حتى بكالوريوس .

فابتسم عصام قائلاً : إنك عقلية اقتصادية رائعة يا ولدي . . وكل دكاترة الاقـتصـاد في حاجة لأن يتـعلموا مـثل أسرار هذا العلم .

أشار الأب لأعلى قائلاً : هناك طابق خاص باسمك في هذه

العمارة، وهو مؤثث على أحدث طراز . . وثمنه وحده أكثر من مليون جنيه . . ويمكنك أن تعتبره هديتي لك . . لتتزوج فيه الفتاة التي أختارها لك . . فتاة الأحلام طبعاً التي تليق بابن نظمي بك . . الدكتور عصام .

وأضاف باسماً : إنه الطابق العشرون . . أو الطابق الساحر كما أسميه .

ومن أعلى كان المشهد فاتناً . . والقاهرة تبدو كما لو كانت بضع نقاط من الضوء يخترقها نهر النيل في سكونه وعظمته . . وثمة سحب خريفية ناحلة تكسو وجه السماء بغير انتظام .

وامتدت يد عصام إلى سماعة التليفون وهو يقول لوالده : سوف أتصل باصدقائي لأخبرهم بعودتي، فلم أشأ أن اطلب منهم انتظاري في المطار كما أردت و . .

ولكن الأب قاطعه في لهجة حازمة قائلاً : لا تتعجل ذلك الآن . . فليس هناك وقت لمقابلة الأصدقاء . . وبعد أن تعود من الإسكندرية يمكنك أن تقضي معهم من الوقت ما تشاء .

فتراجعت يد عصام عن الهاتف ونكس رأسه في صمت . . اعتاد والده دائماً أن يصدر إليه الأوامر . . وهو قد اعتاد

الصمت والقبول دون نقاش .. حتى وهو في تلك البلاد البعيدة التي تنتمي إلى قارة أخرى.

وفي الصباح اغرورقت عينا عصام بالدموع وأوشك أن ينهار وهو يضع باقة الورد فوق قبر أمه . . وهمس الأب في صوت أخفى انفعاله :

ـ كانت أمك تتمنى أن ترى هذه اللحظة وأنت عائد بشهادتك الكبيرة . . ولكن القدر والمرض لم يمهلاها .

وأضاف في أسى وألم : لقد أنفقت على علاجها عشرات الألوف . . ولكن ولا مال العالم كله يمنع القدر .

وتماسك عصام . . لم يكن يحب أن يرى أي انسان دموعه . . كانت أحزانه مغلقة على قلبه لا يسمح لإنسان أن يراها . . حتى ولو كان ذلك الإنسان أباه!!

وغادر الاثنان المكان . . وانطلق بهما رتل السيارات إلى الإسكندرية وقد غرقا في صمت مديد .

وكانت الفيلا التي اشتراها الأب في العجمي تقع في بقعة هادئة على ركن الشاطئ تتدافع لترتطم بالصفحة الرملية وتنكسر إلى زبد وقطرات الماء تتناثر في كل مكان . . كأنها تنتحر عند أقدام الشاطئ وتحت الصخور .

ووقف عصام يحدق من شرفة الفيلا إلى الشاطئ الخالي . .

كان ثمة طائر أبيض كبير يحلق فوق الشاطئ دون صمت . . كأنه طائر الصمت . . أو كأنه جزء من لوحة خطتها ريشة الطبيعة . . وقد بدا الطائر الوحيد في سماء الشاطئ المتسع ، ككائن ضئيل لا حيلة له غارق ، في اتساع المكان وشموخه . . لا يكاد يشعر به إنسان ، إن رحل بعيداً أو بقي . . إن ملأ الدنيا صياحاً وصراخاً . . أو أطبق عليه الصمت إلى الأبد .

كان ذلك الطائر الوحيد الصامت يشبهه الى حد كبير . .

هو في بلاد الغربة كان طائراً وحيداً يحلق في صمت فوق مدن وبلاد وأناس لم يتسع لهم قلبه أبداً . .

كان قلبه هنا . . في هذه البلاد يجد راحته بين ذراعي أمه كطفل صغير . .

وأمه قد رحلت وهو في بلاد بعيدة . . ولم يعرف برحيلها إلا بعدها بشهور . . أخفى عنه أبوه كل تفاصيل مرضها المفاجئ وموتها . . كأنه يمارس إرادته عليه حتى في مواجهة الموت . . حتى في تقبل الأحزان وذرف الدموع وإطلاق آهات الألم .

وكأن مسألة الدكتوراه التي خشي عليه والده أن يفقدها ، كانت أهم من وداعه لأمه ، وأن يضعها بيديه في مثواها

الاخير .

وبعدها زادت آلام وحدته وتضاعفت . . وشعر أن وجوده كعدمه . . وأنه يمضي وحيداً .

وها هو لم يعد له غير والده في هذا العالم . . ولكن ما أوسع الهوة التي تفصلهما . . انشغل والده بأمره . . ولكن المال كان يشغله أكثر . . كان يحلم بتكوين إمبراطورية للمال لا حدود لها ، كأنما ليحتمي بها من ذكريات سابقة لأيام معاناة طويلة عندما أعوزه الاحتياج وأذلته قلة المال . .

ولهذا أرسله إلى الخارج . . ليأتي بتلك الشهادة حتى يتضاعف تفاخره . .

الأب بماله . . والابن بشهادته الكبيرة . .

ولكن القلب الوحيد والطائر الساكن يحلق فوق العالم . . من يمكنه أن يعيده إلى هذا العالم مرة أخرى؟

من كان يمكنه أن يعيد إليه ما فقده؟

لم تكن به رغبة للسفر إلى الخارج . . ولكن رغبة والده كانت أقوى . .

كان يحب دفء الحياة وصخبها . . بين طرقات وشوارع السيدة زينب التي نشأ بها . . ومقاهي الحسين ومطاعمها . .

والنزهة فوق النيل بمراكب شراعية مقابل قروش قليلة . .
كانت رغباته بسيطة حميمة تمتلئ حباً للناس والحياة . .
ولكن والده لم ير فيه غير وسيلة لشهادة كبيرة . . كان يحب الحصول عليها من بلاد بعيدة ليتحقق حلم فشل الوالد في تحقيقه . . في الوقت الذي كان يتمنى فيه دراسة الفن لا الاقتصاد .
وسافر وهو يشعر أنه ترك قلبه في بلده . .
ويوم عرف بموت أمه . . فقد الرغبة في أشياء كثيرة . .
وعاد لأنه لم يكن له مكان آخر يذهب إليه . . كأن كنيته اقتلعت من جذورها . . وصار يجاهد لتمتد جذوره في تلك الأرض الجديدة التي أعاده والده إليها . .
أرض الوطن صارت أرضاً غريبة عنه بعد أن رحلت أمه .
وأفاق على صوت والده وهو يقول له : هل أعجبك مشهد الشاطئ من هذا المكان؟
التفت إلى أبيه قائلاً ، بصمته وسكونه وشموخه . .
والحزن الساكن في أعماقه: إنه رائع يا أبي .
قال الأب ضاحكاً : ليس هذا وقت الرومانسيات . . أنا أريدك الآن أن تجتمع مع كل مساعدي ومديري شركاتي

وفروع السوبرماركت التي أنشأتها، لتناقشا معاً خطة العمل القادمة.. لأنك ستكون مسؤولاً عن كل شيء عنها بعد عودتنا إلى القاهرة.

فتساءل عصام في دهشة: وأنت يا أبي؟

أجاب الأب ضاحكاً: لا.. أنا كبرت على مثل هذه الأشياء.

وغمز بعينيه وهو يضيف: هناك صفقات أهم، وبعشرات الملايين تتطلب سفري إلى الخارج..

ومنذ هذه اللحظة سأتفرّغ لها ولن أبقى في مصر كثيراً.

هتف عصام في ألم كأنه يتشبث ببقايا ذاته: لا يا أبي.. لا تتركني وتذهب.. نحن لسنا في حاجة إلى مزيد من المال لنفترق ثانية بسببه.

ولكن وجه الأب اكتسى بنبرة قلق وهو يقول: دكتور عصام.. إنك لست طفلاً لتطلب مني البقاء بجوارك.. وهناك في الحياة أشياء أهم من تلك المشاعر البلهاء.

وأضاف آمراً: هيا للاجتماع.. وعليك أن تظهر أمام الجميع بمظهر رجل الأعمال.

وتركه الاب وعاد إلى الداخل.

وشعر عصام بوحدته تتزايد . . وغشيته سحابات من الألم ، وألقى ببصره إلى الشاطئ .

ولكن . . كان طائر الصمت قد غادر الشاطئ إلى مصير مجهول .

وزاد انقباض قلب عصام . . وتحرك إلى مكان الاجتماع وهو يجر قدميه جراً .

واستغرق الاجتماع ساعات طويلة أمضاها عصام صامتاً يسمع ويسمع .

وفي نهايتها أقام والده احتفالاً صغيراً بمناسبة عودة عصام من الخارج . . وأخبره أنه قد منح كل موظفيه إجازة يومين مكافأة لحصوله على الدكتوراه .

وفي المساء أحس عصام بالاختناق داخل الفيلا ، فقال لوالده : سأذهب لأتجول قليلاً على الشاطئ .

فقال الأب : ولكن لا تتأخر . . فهناك تعليمات أخيرة أريد تزويدك بها قبل سفري .

وكان شاطئ ميامي في المساء خالياً مظلماً . .

وسار بامتداد الشاطئ إلى قلب الحياة في الإسكندرية . . وشعر بأنه يسترد قليلاً من أنفاسه وراحته . . لكم اشتاق إلى

هذا الشاطئ بالذات في غربته . . شاطئ الإسكندرية الأثير لديه . . كم من ذكريات حلوة قضاها في هذا المكان . . ذكريات عامرة بالمرح والسعادة وأحداث حبيبة إلى قلبه .

كان ذلك قبل أن يمتلك والده الملايين وتعتصر قلبه شهوة المال . . حيث صار كل شيء بعدها مسخراً لهذا الغرض . . حتى أقرب مشاعره .

وطالعه شاطئ سيدي بشر . . أكثر أحياء الإسكندرية صخباً وضجيجاً وحياة .

كان الشاطئ غارقاً في الصمت والسكون أيضاً . . كأنما الإسكندرية بأكملها تلوذ بالصمت تلك الليلة . . وليس من إضاءة على الشاطئ إلا أنوارٌ خافتة تأتي من بعض المنازل والمحلات المستيقظة على الجانب البعيد .

وجلس على صخرة في نهاية الشاطئ يراقب الموج القريب وأضواء السفن البعيدة كأنها عيون متلألئة لحيوانات خرافية تعيش فوق سطح الماء وتمارس حياتها في حرية .

والتفت إلى الخلف عندما سمع صوت حفيف أقدام فوق الرمال .

وشاهدها لأول مرة . . كأنها طائر الصمت المحلق فوق

الشاطئ الساكن من الحياة . . كانت تقف على مسافة أمتار قليلة منه، رقيقة ككائن سحري يترقرق رقة وفتنة . . ووجهها النحيل المثلث يبدو كما لو كانت تضيئه أنوار خفية، وشعرها الأسود الفاحم كما لو كان ليلاً يحيط ببدر متألق . . وبدنها الضئيل كأنه شجرة ربيعية قد استقامت في غير أوانها . . وقدشمرت البنطلون الطويل عن ساقيها، وراحت تخوض في ماء الشاطئ الذي وصل حتى منتصف ساقيها . . وبقدميها الصغيرتين راحت تداعب الماء المتكسر تحت قدميها في صمت ومناجاة . . وشفتاها قد ارتسمت فوقهما ابتسامة رقيقة حالمة .

جمدت نظرات عصام فوق الفتاة التي بدت له كأنها حورية قد غادرت مملكتها السعيدة في قلب الماء إلى الشاطئ . . وشعر بوجودها المفاجئ . . كانت قد أعادت الحياة إلى المكان . . وحولت سكونه إلى صخب وضجيج وحياة . . وحتى برودة المكان صارت دفئاً وسلاماً . . وكأن الظلام قد استحال إلى أنهار من الأضواء المتلألئة . .

كأنما أحدث وجود تلك الفتاة انقلاباً فوق الشاطئ . . بعث بالبهجة إلى كل مكان، فتعلقت عينا عصام بها مشدوهتين دون أن تلاحظه هي .

واستدارت الصبية الساحرة إليه فدق قلب عصام في

عنف . . ووقفت هي تحدق فيه لحظة خاطفة كأنما فوجئت به . . وكأنها ضبطت وهي تفعل شيئاً محرماً . . فكسا وجهها الحلو سحابات من القلق . . واصطبغت ابتسامتها الرقيقة الفاتنة بألوان كالطفيف . حتى شفتاها الرقيقتان راحتا ترتعشان في خوف واضح .

وتراجعت الفتاة خطوة ، فقفز عصام من مكانه وصاح بها :
لا تخشي شيئاً . . أنا لا أريد بك شراً .

ولكن كلماته لم تجد أي صدى لديها .

ورآها تواصل تراجعها . . ثم انفلتت هاربة بامتداد الشاطئ .

ووقف عصام مكانه في ذهول وهو لا يدري سر تصرف الفتاة الغريب . .

وهتف يناديها ثانية . . ولكن الشاطئ الخالي ردد صدى صوته الحزين . .

وعاد السكون يشمل الشاطئ بأكمله .

ولهثت أنفاس عصام وأحس بحرقة في صدره . . وخيل إليه أن ما شاهده كان طيفاً . . حلماً . . وهماً . . او شيئاً أقرب إلى الخيال منه إلى الحقيقة .

وأراد أن يتأكد فاندفع لاهثاً بطول الشاطئ . . ولكن لم

يكن هناك أثر ما لأي مخلوق حوله. . كأنما ابتلع الظلام سره في جوفه متآمراً.

ثم لفت انتباهه شيء شاهده ملقى قريباً من المكان الذي شاهد فيه تلك الفتاة. . كان حذاء نسائياً من القماش الملون الرخيص.

ودق قلب عصام في عنف وأدرك أن ما شاهده لم يكن خيالاً أو وهماً. .

كان وجود الحذاء يؤكد له أن ما رآه كان حقيقة. . وأن الحذاء الملون يخص تلك الفتاة الرقيقة التي اندفعت هاربة لرؤيته.

وأمسك الحذاء وكل جزء في بدنه يرتعش كأنه يمسك بشيء عزيز غال.

كان الحذاء جديداً يباع في العديد من محلات الشاطئ، وقد التصقت بأطرافه حبات من الرمل الناعم. . ولم يكن من شك أن صاحبته قد آثرت السلامة بتركه وعدم التقاطه. . أو ربما نسيته في غمرة اضطرابها واندفاعها أثناء هروبها.

واحتضن عصام الحذاء الخفيف قرب صدره. .

وبقي مكانه أكثر من ساعتين دون أن تظهر صاحبة

الحذاء . . ولسعته البرودة فتحرك أخيراً عائداً الى الفيلا . .

وامضى طوال الليل يتقلب فوق فراشه دون أن يغمض له جفن ، وهو يتخيل صاحبة الحذاء تداعب الماء بقدميها . . ثم وهي تفر هازبة من أمامه .

وفي الصباح التالي أسرع إلى نفس البقعة فوق الشاطئ يبحث عنها .

وجاء إلى المكان أناس كثيرون . . ولكنها لم تكن بينهم . .

وانتظرها في المساء . . ولكنها لم تأت . . ولا في المساء التالي ايضاً . . وفي الصباح الذي بعده قال له والده : سوف نعود بعد ساعة إلى القاهرة . . لأنني سأضطر للسفر إلى الخارج هذا المساء .

فلم ينطق عصام بشيء ، وعادت صورة الطائر الوحيد الحزين المحلق فوق الشاطئ الخالي تحوم أمامه عينيه .

وشعر بقلبه يغترب مرة أخرى رغماً عنه .

* * *

«سندريلا والحذاء»

احتضن عصام صديقه جلال بقوة . . تعانق الاثنان أكثر من مرة وشوق بالغ يبين في العيون ، وقال جلال في تلهف : أربعة أيام منذ عودتك إلى مصر . . ولا تحادثني حتى بالتليفون؟

قال عصام في ارتباك وخجل : إنها أوامر نظمي بك .

أطلق جلال ضحكة مجلجلة قائلاً :

ـ ألا يزال والدك مصراً على إصدار الأوامر إليك .

أجابه عصام في أسى : واختار لي أيضاً أن أدير إمبراطوريته . . دون حتى أن يسألني عن رأيي .

أدرك جلال من لهجة صديقه أنه يعاني بشدة ، وآثر التخفيف عنه فقال له : لا بأس ، إنك لن تجد فرصة أفضل من ذلك . . إن هذا العمل يناسب دراستك تماماً .

ـ أنت على حق .

قالها عصام ، وقد نكس رأسه يملؤه شعور بالهزيمة . .
وتفرس جلال في وجه عصام ثم قال متشككاً : هناك شيء ما يدور في ذهنك . . ثمة إحساس غامض بالحزن يبدو عليك ولا أدري له سبباً . . فهل أنا مصح في استنتاجي أن ان طول فترة افتراقنا قد جعلتني لا أستطيع قراءة أفكارك بالطريقة الصحيحة؟

بدا الارتباك على عصام ، وقال متهرباً وهو يصطنع ابتسامة شاحبة : لقد أخطأت هذه المرة . . فليس هناك ما يقلقني أو يحزنني .

وأكمل وهو يلقي نظرة إلى ساعته : والآن ، هيا بنا فقد حان موعد جولتي على فروع شركات والدي للإشراف عليها حسب رغبته .

قال جلال ساخطاً : لا تخبرني أنك ستأخذني في جولة بين فروع السوبرماركت لتتفقد معلبات البولوبيف والمربى وعلب المنظفات؟

قال عصام ضاحكاً : هذا هو قدرك لأنك صديقي الحميم . . وعليك أن تعاني جزءاً مما أعانيه!

واستقل الاثنان سيارة عصام الفاخرة التي تركها والده له قبل سفره . . واستقبلهما مدير أول الفروع مرحباً . . ولم

تستغرق الجولة طويلاً داخل الفرع المزدحم بالبضائع والزبائن . .

وعندما أوشكت الشمس على المغيب كانا قد زارا ثلاثة عشر فرعاً . . وقال جلال في إرهاق : لقد تعبت بما فيه الكفاية من هذه الجولات وأرغب في بعض الراحة .

فقال عصام ضاحكاً : بقي فرع أخير لا بد من زيارته حسب الخطة الموضوعة من والدي . . وإلا لأخبره موظفوه بأنني تكاسلت عن عملي منذ أول يوم!

قال جلال : حسناً . . إنها آخر زيارة وبعدها . .

أكمل عصام باسماً : سننطلق إلى حي الحسين فنقضي هناك وقتاً ممتعاً ونشرب الشاي في مقهى الفيشاوي ونتناول لحمة الرأس والشوربة اللذيذة في مطعم «الركيب» .

انفتحت شهية جلال وهتف في حماس : إذن هيا بنا .

وكان الفرع الأخير في قلب حي الترعة البولاقية المزدحم بالناس . . واستقبلهما مدير الفرع الكبير في ترحاب بالغ وهو يقودهما داخل أقسام الفرع المختلفة .

وانتهت الجولة سريعاً ، وغمز جلال لصديقه بطرف خفي وهو يظهر ضيقه وتبرمه ، فالتفت عصام إلى مدير الفرع قائلاً :

أنا مضطر للانصراف الآن في بعض الاعمال العاجلة. . وسأخبر نظمي بك أن العمل يسير بأحسن طريقة في هذا الفرع.

فأشرق وجه مدير الفرع بالسرور وقال: شكراً لك يا دكتور عصام.

وجذب جلال ذراع صديقه خارجين من المكان. . ولكن عصام توقف مكانه وقد اتسعت عيناه في ذهول بالغ وهو يحدق في شيء ما تبدى أمامه في لحظة مباغتة.

لم يكن يصدق ما رأته عيناه تلك اللحظة.

ظن أن بصره قد خدعه. . وأن الأمر حلم ووهم. .

ولكنها كانت هناك. . واقفة على مسافة خطوات قليلة منه، وقد انشغلت برص المعلبات والبضائع في الرفوف التي خلت منها، وهي في زي العاملات المعد للسوبرماركت دون أن تنتبه لوجوده أو تشعر به.

وتعالى لهاث عصام وتسارعت نبضاته وشحب وجهه وهو لا يكاد يصدق الصدفة العجيبة المذهلة. .

والتفت جلال إلى صديقه في دهشة متسائلاً: ماذا حدث لك. . لماذا توقفت فجأة؟

وغمغم عصام دون وعي: إنها هي. . هي. . هذا

مؤكد.

- هي من؟

تساءل جلال في دهشة وهو يتلفت حوله.

أشار عصام إلى فتاة الشاطئ وهو يحاول أن يكبت انفعاله، وقال هامساً لصديقه: إنها هي نفس الفتاة.. إنني متأكد، فمن المستحيل أن أنسى ابتسامتها وملامحها أبداً.

نظر جلال حيث أشار صديقه.. وتنبهت الفتاة إلى عصام وأصبعه التي تشير نحوها، فالتفتت إليه بنظرة عابرة مندهشة، ثم واصلت عملها وفوق شفتيها نفس الابتسامة الهادئة الرقيقة الحالمة.

وقال عصام في ألم وضيق: يبدو أنها لم تتذكرني.

هز جلال كتفيه في حيرة قائلاً:

- لست أفهم شيئاً من كل هذه الألغاز التي تدور حولي.

قال عصام في توتر: سوف أخبرك بكل شيء فيما بعد.. ولكن الآن يجب أن أحدثها فوراً.

واتجه إلى الفتاة وتوقف جوارها، وقال لها باسماً: لا شك أنك لم تتذكريني.. إنني الشاب الذي رآك على شاطئ سيدي بشر..

وبتر عصام عبارته عندما شاهد الفتاة وهي تنسحب من

جواره دون أن تعبأ به أو تلتفت إليه، فوقف مكانه في غيظ وهو يشعر بالهزيمة، وزاد ارتباكه عندما لمح نظرات بعض الزبائن له. فاتجه خارجاً من المكان وجلال يتبعه حائراً، وأخيراً قال له في دهشة بعد أن صارا خارج المكان: لم يكن يليق بك أن تغازل فتاة صغيرة تعمل في محل والدك.

قال عصام في ألم وضيق: أنا لم أكن أغازلها.. صدقني..

- لماذا لا تشرح لي الأمر كله إذن؟

فانطلق عصام يخبر صديقه بالأمر كله كأنه يزيح عن صدره سراً، وقال جلال وهو يلتهم كوباً من الشاي في مقهى الفيشاوي متلذذاً: إنها حكاية غريبة حقاً وصدفة لا تتكرر.

قال عصام في أسى: ولكن المؤلم أنها لم تتذكرني.

فتساءل جلال في دهشة: واذا كانت قد تذكرت.. ماذا تريد منها؟

شحب وجه عصام وقال في ارتباك: لا أدري.

انفجر جلال ضاحكاً فرمقه عصام في دهشة ولوم، وتوقف جلال عن الضحك والتفت إلى صديقه قائلاً: إن قصتك الغريبة هذه تذكرني بقصة للأطفال قرأتها وأنا صغير.

تساءل عصام في ضيق : هل تسخر مني بما تقوله؟

أجابه جلال في جدية : إنها قصة سندريللا . . هل تذكرها . . لقد كانت فتاة فقيرة ولكن جنية طيبة أهدتها بعض الملابس الفاخرة فذهبت بها إلى حفل الأمير الذي أراد اختيار زوجة له ، فأعجب بسندريللا ، ولكن عندما دقت الساعة منتصف الليل أرادت سندريللا مغادرة المكان كما طلبت منها الجنية ، فهرولت هاربة ، وفي غمرة ارتباكها وهربها فقدت فردة حذائها التي التقطها الأمير . . وانطلق رجاله يجوبون المملكة بحثاً عن تلك الفتاة ، ودليلهم إليها فردة الحذاء تلك ، إلى أن عثروا عليها في النهاية!

هب عصام واقفاً وقد أشرق وجهه ، وهتف في سعادة : يا إلهي . . كيف فاتني ذلك . . لقد نسيت أمر الحذاء ، ومن المؤكد أنني عندما أريه لها فسوف تتذكرني على الفور .

قطب جلال حاجبيه في دهشة قائلاً : إنني في حيرة لاهتمامك البالغ بأمر هذه الفتاة . وماذا بعد أن تعيد إليها حذاءها؟

نكس عصام رأسه في صمت دون أن يجد أي رد . . وواصل جلال في تحذيره قائلاً : تذكَّر من تكون أنت . . وهي

ليست سوى عاملة في أحد محلات والدك، وأن أي محاولة منك لمغازلتها أو التقرب منها سوف تثير ضدك الأقاويل.

ولم ينطق عصام بشيء أيضاً ولاذ بالصمت.

وبعد دقائق كان الاثنان قد غادرا المكان.. وقد اختمرت في رأس عصام الفكرة..

وعاد إلى منزله سريعاً.. وبعض الاتصالات الهاتفية لمدير العاملين في محلات والده أمكنه أن يعرف اسم فتاة الشاطئ أخيراً.

«ياسمين».. وخيل إليه كأنه يشتم عبق رائحة اسمها.. كأن كل فراغ المكان امتلأ برائحة الياسمين.

وهمس باسمها ألف مرة.. واحتضنها بخياله آلاف المرات وهو جالس يستمع إلى الموسيقى الناعمة الحالمة في الطابق العشرين وكل القاهرة تحت أقدامه..

ونام وهو جالس، وهي تداعب خياله.. وسؤال صديقه الوحيد يتردد في أذنيه: ماذا بعد أن تعيد إليها حذاءها؟

وكان يجهل الإجابة.

وأشرقت شمس الغد سريعاً.

وأنهى عصام أعماله.. واقتربت الساعة من التاسعة

مسـاء. . الوقت الذي تغلق فيـه فروع والده أبوابهـا ويعود فـيه العاملون إلى بيوتهم. .

وقبع عصـام في سيـارته على مسـافة قـريبة من فـرع الترعـة البولاقـية. . وبجواره لفافـة أنيقة استـقر بداخلهاحذاء القـماش الملون. .

وأخـيراً ظهـرت ياسمين فـي ثوب أخضـر يوحي بالأمل. . وقـد عقـصت شعرها الأسـود الناعم بمشـبك معـدني ملون. . فـبدت نـهـايات شـعـرها كـجناحي طائر يوشـك أن يقلع إلى سموات بعيدة.

ودق قلبه في عنف لمرآها وتفصد العرق من جبينه.

لم يجرب هذا الشعور من قبـل أبداً. . كأنه عاد مراهقاً إلى نصف عـمره. . يمتلئ قلبـه برهبـة التجـربة الأولى. . وتتجـمع نقاط غزيرة من العرق البارد فوق جبهته كأنها علامات ارتباكه وقلة خبرته.

وعندما رآها تقترب غادر سيـارته ممسكاً اللفافة كشيء عزيز غال.

واقترب منها معترضاً طريقها فتوقفت في دهشة وقد أخذتها المفاجأة. ولـكنه تمالك نفسه قائلاً لهـا : لعلك لا تذكرينني. .

لقد تقابلنا صدفة عند شاطئ سيدي بشر في الإسكندرية مساء منذ عدة أيام . . ولكن يبدو أنك نسيت ذلك ، أو أنك لم تتبيني ملامحي جيداً . . ولكن لعل هذا الحذاء يؤكد لك صدق حديثي؟

وأخرج حذاء القماش من داخل اللفافة الملونة . . وعندما رأته ياسمين أشرق وجهها بسعادة غامرة ، ومدت يدها إلى الحذاء وهي تلقي على عصام بنظرة شكر أضاءت عينيها بصورة فاتنة . . فاجتاحته سعادة غامرة وهمس يقول لها : هل تذكرينني الآن . . إنك لا تتخيلين سعادتي في هذه اللحظة لأنني قابلتك مرة أخرى بهذه السرعة .

وحدق فيها بعينين تشع منهما سعادة متألقة ، فجاوبته ياسمين بابتسامة عريضة وهي تحتضن حذاءها ، كأنها تحتضن عزيزاً غالياً ، فقال عصام باسماً لها : لقد كنت أريد أن آتيك بهدية ثمينة ، ولكني رأيت تأجيل ذلك إلى أن نتعارف حتى لا تسيئي الظن بي .

وأشار إلى سيارته قائلاً : والآن ما رأيك في نزهة بسيارتي إلى أي مكان تختارينه . . وسوف أنتقي لك من الهدايا ما تشائين مهما غلا ثمنها .

ولكن النظرة البريئة السعيدة في وجه ياسمين تحولت إلى

ذعر وهلع . . وتراجعت إلى الوراء خطوتين وهي تحدق في عصام برعب . . ورآها والدموع تنفجر في عينيها وتشهق بالبكاء . . ثم اندفعت فوق الرصيف تجري لاهثة وقد احتضنت حذاءها بين ذراعيها في قوة كأنها تخشى أن يسلبه منها إنسان ما .

جمد عصام مكانه لحظة كالمشلول دون أن يدري سر تصرف ياسمين المفاجئ ، وأفاق سريعاً عندما شاهد السيارة السريعة المقبلة فوق الطريق وقد أطلقت بوقها في تحذير ، ولكن ياسمين اندفعت تعبر الطريق بسرعة غير عابئة بها . وكادت السيارة تدهسها لولا مهارة قائدها الذي انحرف بها في اللحظة الاخيرة ، ثم أوقف سيارته في غضب وانطلق بالسباب نحو ياسمين التي قفزت إلى الرصيف الثاني قبل أن تذوب وسط الزحام .

لم يستغرق المشهد أكثر من ثوان قليلة . . ووقف عصام مكانه مسمراً دون أن يجد لديه القوة على الحركة . وعندما استدار ببطء ووجهه شاحب ، شاهد مدير الفرع واقفاً على مسافة قريبة يحدق فيه في صمت . . وقد بدا واضحاً أنه قد شاهد وسمع كل شيء .

وأحس عصام بالخجل والارتباك . . وهمس كأنه يعتذر

لمدير الفرع : إنني لم أطلب منها شيئاً آثماً . . فكل ما قلته لها أن دعوتها إلى نزهة في سيارتي ووعدتها بشراء هدية لها .

قطب مدير الفرع حاجبيه دون أن تفصح ملامحه عن أي مشاعر وقال : إنها ما كان يمكن أن تلبي طلبك .

ـ ولماذا؟

أجابه مدير الفرع دون اي مشاعر . ذلك لانها صماء وبكماء . . . فهي لا تسمع ولا تتكلم .

أحس عصام أنه تلقّى لكمة قوية جعلته يفقد اتزانه . . فترنح وتساند على الحائط بشدة لكي لا يتهاوى مكانه على الأرض .

* * *

«ملجأ الأيتام»

كانت الصدمة الأولى حادة كلهب حارق يخترق القلب ويكوي مسامه.

ولكن الصدمة انزاحت تاركة مكانها ألماً ترسخ في وجدانه.. وكان من المستحيل أن تقدر أي مسرة على مداواته.

لحظة تلقي الصدمة شعر كأن العالم كله قد انهار فوق رأسه.. كأن نبض الحياة حوله قد توقف في سكون ميت.. كأن الصخب والضجيج والحياة الناطقة تحولت إلى خرس دائم.. تصدمنا الأقدار بأحداث أغرب من الخيال..

وهو كان على استعداد لأن يسمع ويتخيل كل شيء في العالم.. إلا ما رآه وسمعه.. كانت هي صماء بكماء..

لم تسمع كلمة مما قاله. . ولا هي كانت قادرة على أن تفهم ما يريده. . ولا أن تسمع بوق السيارة التي أوشكت أن تدهسها تحت عجلاتها.

عالمها كله سكون أبدي. . مرئيات متحركة أمام عينيها دون صمت. .

صراخها صمت وكلماتها صمت ومشاعرها صمت وحتى إنصاتها صمت فأي قدر قاسٍ قد وضع تلك الفتاة في طريقه؟

لم يكن هو الذي اختارها. . قلبه اختارها. . وهي من دون كل من رآهن كانت غير قادرة على أن تسمعه أو تحدثه بالرغم من أنه أراد أن يقول لها أشياء كثيرة. . أكثر مما قاله كل العشاق في أزمنة لا حصر لها. .

وأراد أن يجلو السر كالمحموم. .

وعرف السر من مدير الفرع. . سر رؤيته لها في الإسكندرية. .

كان والده قد منح كل العاملين في الفروع بأكملها اجازة يومين بمناسبة حصوله على الدكتوراه، ورحلة مجانية إلى الإسكندرية. . وكانت ياسمين ضمن من قمن بالرحلة عندما رآها صدفة على الشاطئ. .

واندهش أن والده كان يمنح شيئاً مجانياً . . ولو بسببه هو . .

ولكن لولا ذلك ربما ما كان قد شاهد ياسمين ولا عرف بوجودها في هذا العالم . . كأن عودته مرتبطة برؤيته لها وانجذابه إليها . . وكأن قدريهما قد تشابكا في رباط عجيب، لا يملكان من أثره أي تبديل .

وظل طوال الليل غير قادر على أن ينطق بكلمة كأنما لسانه أصابه خرس . . وهو يذهب ويجيء كوحش حبيس يصارع عدواً غير مرئي . . غير مسموع . .

واجتاحته حمى لأن يعرف عنها كل شيء . . وبقى مسهداً يتعجل أول خيوط الصباح . . وانطلق إلى فرع الترعة البولاقية . . ولكنه اكتشف أنها لم تجيء للعمل . . وتعاظمت هواجسه في أن يكون ما حدث بالأمس سبباً في امتناعها عن المجيء للعمل . . وذهابها بلا عودة . . ولم يكن يعرف لها عنواناً .

فذهب إلى مدير شؤون العاملين في شركات والده . . وكانت المعلومات الأولية التي تلقاها منه صدمة أخرى أشد قسوة . .

جاءت ياسمين لتلتحق بالعمل من أحد ملاجئ الأيتام . .

كانت يتيمة منذ طفولتها وتوسطت لها مديرة الملجأ وأشفق والده على الفتاة الصماء البكماء فألحقها بالعمل لديه . . وبسبب عاهتها لم يكن هناك عمل يناسبها غير تنظيف المكان ورص المعلبات في الأماكن الخالية منها . . بالرغم من أنها حصلت على بكالوريوس التجارة!

حدق عصام في المدير ذاهلاً وغمغم : بكالوريوس تجارة . . كيف؟

ولكن المدير هز كتفيه في حيرة وصمت دون إجابة . .

وقال عصام للمدير وهو يغالب نفسه : أرجوك أعطني عنوان هذا الملجأ الذي تقيم فيه ياسمين .

وحصل على العنوان . . وانطلق بسيارته كالمحموم إلى هناك . .

كان الملجأ يقع في أطراف العاصمة . . تحيطه صحراء جرداء من كل جانب كأنها رمز لحياة من يعيشون فيه ، ومن قسا عليهم الدهر لينبت أوراقهم وأزهارهم في أرض بلا تربة . . واستقبلته مديرة الملجأ بنظرة تساؤل . . ظنته أحد المتبرعين ببعض المال لفتيات الملجأ اليتيمات . . ولكنه قال لها مباشرة : لقد جئت بشأن الانسة ياسمين .

وقدم لها بطاقة باسمه . . فتعقد حاجبا مديرة الملجأ بنظرة دهشة وتساءلت : أنت ابن نظمي بك؟

عاود قوله في إصرار : لقد جئت بشأن الآنسة ياسمين .

واجهته مديرة الملجأ بنظرة حذرة . . كنمرة على استعداد أن تذود عن أبنائها إذا ما اشتمت رائحة خطر .

ولكن عصام قال شارحاً لها : يبدو أنه قد حدث سوء تفاهم بيني وبينها بالأمس ، ولهذا انقطعت عن المجيء إلى العمل اليوم .

مضت لحظة صمت ، وقالت مديرة الملجأ : لقد أخبرتني ياسمين بكل شيء مساء عند عودتها .

رد في دهشة : أخبرتك؟

قالت المديرة : إنني أجيد التحدث بلغة الإشارات . . فقد تعلمتها بسبب وجود بعض الفتيات الصم في الملجأ .

وأكملت بعد لحظة صمت أخرى : أما ياسمين فإنني اعتبرها كأبنتي تماماً .

احتقن وجه عصام لحظة ، وقال في صوت مختنق : وماذا أخبرتك عني؟

أجابته المديرة في هدوء : أنت تعرف ولا شك أن الكثير من

الفتيات تتعرض للمعاكسات والمضايقات عند عودتهن وحدهن مساء، وياسمين قد تعرضت لتلك المضايقات كثيراً، وكانت تسرع بالابتعاد في كل مرة، فهي كانت غير قادرة على صد أي شاب يحاول مضايقتها. . أو حتى الصراخ والاستنجاد بالناس.

قال عصام في صوت متألم: وهل ظنت أنني أحد هؤلاء الشبان؟

وكان في صمت المديرة رد قاسٍ. . وقالت بعد لحظة: كان طبيعياً أن تظنك أحد هؤلاء الشبان المستهترين، وأنك سوف تطاردها في مكان عملها فقررت الامتناع عن الذهاب إلى عملها.

هتف دون وعي: لا. . أرجوك.

تطلعت إليه المديرة في دهشة تسأله: إنني حتى الآن. . لست أفهم ماذا تريد منها؟

لم يكن يملك الإجابة.

وتطلع حوله حائراً كأنه يبحث عن الرد. .

ان الجميع يسألونه نفس السؤال دون أن يملك الرد. . كأنه يخشى أن يواجه نفسه به. . وكأنه يدرك صعوبته، وأفاق

على صوت المديرة وهي تقول : إن ياسمين فتاة مهذبة وليست من ذلك النوع من الفتيات العابثات . . وأنا لن أسمح لأي إنسان بمضايقتها مهما كان شأنه .

قال عصام بسرعة واعتذار : لقد فهمتني خطأ . . إنني أحترم هذه الفتاة وشجاعتها في مواجهة الحياة .

قالت المديرة ونبرة حزن تكلل كلماتها : إن أحداً لا يدري الشجاعة الحقيقية لهذه الفتاة . . فقد أصرت على أن تتعلم مثل غيرها . . ولاقت مصاعب كثيرة في مدارس الصم والبكم حتى حصلت على الثانوية العامة . . وبعدها ساعدتها أنا بكل طاقتي لكي تلتحق بكلية التجارة . . وقضينا معا أياماً لا حصر لها لكي أشرح لها كل كلمة في كتبها إلى إشارات تفهمها لأنه لم يكن هناك من يستطيع أن يشرح لها ما استعصى عليها من مقررات الكلية . . وأحسست كأنني أدافع عن مستقبل ابنتي وأعتبرها معركة حياتي لأن الله لم ينعم علي بأبناء . . ومن جانبها فقد قاتلت ياسمين واستماتت لتحصل على شهادتها لتهديها لي في النهاية .

وتهدج صوت المديرة ومسحت دمعة ترقرقت في عينيها ، فقال عصام في إشفاق : أنت سيدة عظيمة .

قالت المديرة في تأثر وهي تمسح دموعها : ان الفضل كله يعود إلى إرادة ياسمين وحبها للحياة . . لولا ذلك ما أمكنني أن أساعدها بشيء .

قال عصام في ارتباك : ووالداها . . هل ماتا وهي طفلة . . أم أنها طفلة غير . .

وبتر عبارته لأنه ما كان يحتمل ما سينطق به . . وهتفت المديرة كأنها تبعد شبحاً خفياً : إن ياسمين طفلة شرعية . . ووالداها لا يزالان على قيد الحياة و . .

ولم تكمل المديرة عبارتها وشعرت أنها تسرعت في الرد فصمتت .

عصام في دهشة : ولماذا أدخل والدا ياسمين ابنتهما ملجأ للايتام؟

مرت لحظة صمت . . ومسحت المديرة دمعة أخرى وهي تقول في صمت حزين : لقد اعتبر والداها مجيء طفلة بكماء كارثة بالنسبة لهما ، فأودعاها ملجأ للأيتام ليتخلصا منها .

غمغم عصام في غضب : يا لهذين الأبوين القاسيين .

أكملت المديرة : ولقد أخفيت هذه الحقيقة عن ياسمين ، فهي تظن أن والديها قد توفيا عقب ولادتها مباشرة .

وأكملت المديرة في ألم عميق : أنا لا أدري لماذا أخبرك بكل هذا . . ولكنني ارتحت إليك جداً . . وأرجو أن يكون ما قلته عن والدي ياسمين سراً بيننا . فمعرفتها لشيء مثل هذا قد يدمرها تماماً .

أجابها عصام في انفعال : ثقي من ذلك يا سيدتي . . يكفي ياسمين ما هي فيه من آلام ولا داعي لزيادة جراحها .

قالت المديرة في بعض القلق : إن لوالدك أفضالاً كثيرة على بنات الملجأ ، فقد قام بتشغيل بعضهن عنده ، بالإضافة إلى أنه يتبرع بمبالغ كل حين . . وأخشى . .

ولكن عصام قاطعها قائلاً : لا تخشي شيئاً يا سيدتي . . فليس لوالدي علاقة بهذا الأمر على الإطلاق . . وأنا لن أتسبب في أي مشاكل للملجأ أو موارده المالية .

وتماسك لينهض وهو يقول : أرجوك يا سيدتي . . لا أريدك أن تفهميني خطأ . . وكل ما أطلبه منك أن تعود ياسمين إلى عملها . . وإلا فسأشعر بالذنب تجاهها بقية حياتي لأنني تسببت في فقدانها لعملها .

ـ سوف أحاول معها . . وأقنعها بأنك لم تكن تقصد مضايقتها .

ـ وأنا أعدك بأنه فور عودتها إلى العمل سألحقها بإدارة الحسابات في إحدى شركات والدي ، لكي تعمل في وظيفة تناسب شهادتها .

أشرق وجه مديرة الملجأ وقال في صوت منفعل : أنت إنسان نبيل حقاً . . فبهذا سيخفف قليلاً من إحساس ياسمين بعاهتها ، وستتغير نظرتها إلى الحياة . . فقد تمنت دائماً شيئاً مثل ذلك ، دون أن تجد من يحقق لها أمنيتها .

فقال عصام وهو يخطو خارجاً كأنه يأخذ على نفسه وعداً: من هذه اللحظة لن تعاني ياسمين من أي مشكلة . . وأنا مسؤول عن ذلك .

وفي مكتب والده وجد صديقه في انتظاره ، وسأله جلال في دهشة : أين كنت . . لقد اتصلت بك في كل فروع إمبراطورية السيد الوالد ولكنني لم أعثر عليك .

فأجابه عصام ونظرة حزينة تكسو وجهه : لقد انشغلت بأمر ما هذا الصباح .

تساءل جلال في اهتمام : وما هذا الأمر الذي يجعلك حزيناً الى هذه الدرجة؟

فانطلق عصام يتحدث دون انقطاع . . كان يجد في

الحديث راحة، وكأن ما اختزن في صدره يكاد يقضي عليه.
واستمع إليه جلال في صمت حتى النهاية. . وتساءل عصام بعد أن أنهى روايته في توتر: هل تظن أنها سترضى بالعودة إلى العمل ثانية؟

لم يرد جلال على الفور، وأشعل سيجارة نفث دخانها ببطء حتى تعقد الدخان فوق رأسه وتجاهل السؤال المطروح. .
ثم التفت إلى صديقه في تجهم قائلاً: وماذا بعد ذلك؟

ارتسمت ابتسامة واسعة على وجه عصام وتجاهل السؤال بدوره، وأخرج كتاباً صغيراً قدمه إلى صديقه قائلاً في بهجة: هذا كتاب لتعليم الإشارات لمن يريدون مخاطبة الصم والبكم. . وقد اشتريته في طريق عودتي لأتمكن من محادثة ياسمين بالإشارات بعد عودتها إلى العمل لتستطيع فهمي.

ولكن صديقه كرر في صوت بارد خال من المشاعر: وماذا بعد ذلك؟

كان السؤال ملحاً. . ولا بد من إجابة. .

فقد حانت لحظة الاعتراف بالحقيقة. . وشحب وجه عصام وألقى ببصره بعيداً وهو يقول في كلمات خافتة: إنني أحبها.

«زهرة الياسمين»

ارتسمت ابتسامة ساخـرة فوق شفتي جلال . . وألقى برماد سيجارته في المنفضة ، وهو يقول : هذا ما خمنته لسوء الحظ .

عقـد عصام حاجـبيه بقوة وغـضب قائلاً : كأنك تسـخر مما قلته .

أشـاح جلال بيـديه مواصـلاً بنفس اللهجـة الساخـرة : وهل تريد مني أن أصفق لك أم أهتف إعجاباً . . إنك أنت لم تغيرك سنوات الغربة . . لا تزال مشاعرك غضة طرية لم تختبر بعد . . وعند أول فتـاة صادفتـهـا وأحـسست بـالألم بسبـب معـاناتهـا توهمت وقوعك في حبها .

هب عصام غـاضباً وهو يقول : جـلال . . أنا لا أسمح لك بأن تقول ذلك عني .

اجاب جلال دون اهتمام قائلاً : لا داعي للانفعال يا صديقي ، فلماذا نهرب من الحقيقة الساطعة . . إنك تشعر بالشفقة على هذه الفتاة ، وهذا مؤكد ، وبسبب رهافة مشاعرك ظننت أنك وقعت في حبها . . فقط لأنك أحسست بالألم عليها بسبب عاهتها . . وهذا هو كل ما في الأمر .

انفجر عصام في غضب قائلاً : أنا أحببتها من قبل أن أعرف أنها صماء بكماء .

ولكن جلال واصل في استهانة قائلاً : لا يمكن أن يكون ذلك اللقاء العابر على شاطئ سيدي بشر ، ورؤيتك لها لحظات خاطفة قد أوقعك في حبها . . فهذه الأشياء لا تحدث ولا حتى في الأحلام . . وليس هناك من سبب لوقوعك في حب مثل هذه الفتاة . . فهي ليست خارقة الجمال ولا تتمتع بموهبة غير عادية لكي تحبها من النظرة الأولى .

ولكن عصام كبت غضبه قائلاً في لهجة مرتعشة : إن الحب ليس في حاجة إلى أسباب لتفسيره .

ـ بالعكس . . الحب دائماً في حاجة إلى أسباب تقنعنا به . . وأنت الآن شاب حاصل على أعلى شهادة ، وينتظرك مستقبل عظيم ، وملايين لا حصر لها ، وهي فتاة بلا ماض أو

مستقبل . . وحتى والداها تخليا عنها بسبب عاهتها ، فأي سبب يقنع أي إنسان عاقل بالارتباط بمثل هذه الفتاة . . بالعكس أنها قد تكون مدمرة لمن ترتبط به .

ـ أنت تتحدث من منطق نفعي . . وتحصي المكاسب والخسائر . . والحب ليس صفقة تتعادل فيها الكفتان .

ـ الحب يجب أن يتحكم فيه العقل قبل القلب .

حدق عصام في صديقه لحظة . . ثم قال في صوت متألم : أنت تغيرت كثيراً . . لم تكن هكذا فيما مضى .

أجابه جلال وهو يسحق سيجارته في المنفضة أمامه : أنا تعلمت لكثرة ما قاسيت . . وعرفت أن المشاعر وحدها لا تكفي الإنسان .

تساءل عصام في قسوة جارحة : كل هذا بسبب أن خطيبتك الأولى تركتك وتزوجت برجل أكثر ثراء؟

لم يبد على جلال آثار جراح . . وقال في جمود . . وهو ينفث سيجارته : هي اختارت أن تحب بعقلها رجلاً بإمكانه أن يحقق لها أشياء لم تكن في مقدوري .

ـ هي لم تكن تحبك . . لو أحبتك ما تركتك .

قال جلال ساخراً : الحب كلمة نتشدق بها دائماً في

لحظات الرومانسية والضعف وقبل أن نجرب الحياة الحقيقية . . ولكن عندما يحين الجد فإننا نختار بعقولنا ونهبط إلى أرض الواقع . . وأنا شخصياً عندما سأبحث عن فتاة أتزوجها ، سأختارها ذات مال وثراء لتعوض ما ينقصني . . فقد شبعت من أوهام الرومنسيات القديمة ، ونلت منها نصيبي من الجراح الخائبة .

وأشار بطرف سيجارته الثانية إلى صديقه مكملاً : وأنت لا تزال تعيش هذه الرومنسيات للأسف . . وربما يرجع ذلك إلى سنوات الوحدة التي قضيتها في أمريكا واحتياجك إلى مشاعر من أي نوع تملأ فراغك العاطفي .

راقبه عصام في صمت دون رد . . ونهض جلال وهو يقول : يمكنك أن تحب ما تشاء . . ولكن حذار يا صديقي أن تتمادى فيما هو أكثر من الحب .

وارتسمت ابتسامة قاسية على وجهه وهو يضيف : فوالدك لن يسمح لك بأكثر من هذا الترف مع تلك الفتاة .

وخطا جلال خارجاً . . وكلماته تدوي في أذن عصام كأنها صليل أجراس تكاد تصم الآذان .

* * *

رفع عصام سماعة التليفون وأنصت في ارتياح وقد أشرق وجهه وتلون بالسعادة، وغمغم قائلاً: هذا جيد.. وماذا كانت مشاعرها عندما تسلمت عملها الجديد في الحسابات؟

فأجابه مدير أعمال والده على الهاتف قائلاً: لقد كادت أن تطير من السعادة ولم تصدق أنها ستعمل في إدارة الحسابات.. وراحت إشاراتها تعبر عن سعادتها البالغة.

وصمت لحظة ثم تساءل في قلق:.. ولكن يا دكتور.. كيف ستتمكن من التعامل معها أو إبلاغها التعليمات أو ما نريده في إدارة الحسابات؟

تعقد حاجبا عصام وقال: تصرفوا.. إنكم لن تعدموا وسيلة للتفاهم معها ولو اضطررتم إلى تعلم لغة الإشارات لمخاطبتها.

وأضاف في حماس: لقد أمرت بتخصيص سيارة تقوم بتوصيلها كل يوم إلى الملجأ.. وتأتي بها في الصباح أيضاً، لأن الملجأ يقع في منطقة نائية بعيدة.. وليتكم تمنحون كل فتيات الملجأ العاملات لدينا نفس الميزة.

اعترض مدير الأعمال في احتجاج: ولكن هذا مخالف لتعليمات نظمي بك.

أجابه عصام في حسم : ليس هذا من شأنك . . نفذ ما آمرك به دون نقاش .

وأغلق عصام الخط وهو يشعر بارتياح بالغ . . وتخيل مشهد ياسمين وقد جلست إلى مكتبها الجديد وأمامها دفاتر الحسابات والأرقام .

حلم عمرها . . من يستطيع أن يسلبه منها . . من له الحق في أن يسرق منها ثمرة كفاحها المتمثل في تلك الشهادة الجامعية التي حصلت عليها . . ويعاملها باعتبارها عاملة كأنها لم تصارع عاهة قاسية وتتغلب عليها؟

ومر الوقت سريعاً . .

وفي الثالثة ظهراً تماماً كان عصام يتوقف بسيارته أمام إدارة الحسابات . . وقفز السلالم سريعاً . . وشاهدها وهي تهبط السلالم وحدها دون رفيق أو زميل . . تطالعها نظرات الدهشة من البعض وهمسات الاحتجاج من البعض الآخر بأنه لم يكن ينقصهم غير وجود صماء بكماء في الإدارة .

كأنما تحالف الجميع ضدها . . تدفعهم أنانيتهم وجهلهم . . وكأنهم جميعاً فقدوا أسباب الرحمة .

وتوقف عصام أمامها . . فوجئت ياسمين به . . توقفت

خطواتها وتورد وجهها بألوان رائعة. وأحس عصام بأنفاسها تتصاعد في توتر . . وعيناها تشي بكلمات لا حصر لها تتراقص فيها إشارات بهجة لا حد لها.

ولم ينطق هو بحرف . .

امتدت أصابعه تستخرج من جيبه شيئاً قد لفه في ورقة سيلوفانية جميلة . .

كانت زهرة ياسمين متألقة مبتهجة . . تفتحت أوراقها كأنها تستقبل الحياة بين أوراقها .

أدركت ياسمين أن الزهرة لها وحدها . . وتطلعت عيناها إلى عصام متألقتين وفيهما شكر عميق . . وامتدت أصابعها إلى زهرة الياسمين واغرورقت عيناها بالدموع . .

أشارت أصابعها بحركة وحيدة ترجمها على الفور .. كانت تشكره . .

ووقفا لحظات يترامقان في صمت . . وقد ثبتت نظراتها عليه، وقربت الزهرة من قلبها .

اكتشف أن عينيها لونهما عسلي كأنهما بحر من المشاعر .

عيناها كانتا عالماً كاملاً . . فيه المسرة والحزن . . الأمل واليأس . . فيهما حديث لم ينطق به بشر من قبل . .

عيناها كانتا بساطاً سحرياً حمله في لحظات خاطفة إلى دنيا ممتعة بالمشاعر والبهجة . . إلى عالم اشتاق إليه طويلاً . .

عيناها كانتا كتاباً فيه سطور لا نهاية لها . . ومشاعر تفيض بها كل قلوب البشر . .

انتزع عصام نفسه بالكاد من أسر عينيها . . وبإشارات أصابعه سألها : كيف حالك؟

أحس بعينيها تقفزان ببهجة وسعادة طاغية . . فوجئت إلى حد الذهول أنه قادر على إيصال ما يريده إليها بإشاراته . .

إِرتعشت أصابعها في عصبية ولهفة وهي تجيبه : أنا في أحسن حال . . وادين لك بأشياء كثيرة .

قالت لها أصابعه: انت تستحقين كل ذلك وأكثر . . وليس لي فضل غيرأن وضعتك في المكان الذي تستحقينه .

اغرورقت عيناها بالدموع . . كانت دموعاً ناطقة كأنها تهمس وتشكو بآلام قديمة وأوجاع لا حصر لها . .آلام لم يشعر بها إنسان من قبل .

وأزاحت عينيها عن ملامحه ، ثم أسرعت تهبط السلالم لتخفي عنه بقية دموعها . .

واستدار عصام وهو يشعر بالنشوة . . بالسعادة . . بأن

الدنيا صارت أكثر اتساعاً . . وأن قلب العالم صار أكثر رقة وحناناً . .

ولكنه فوجئ بنظرات الموظفين إليه . . كانت في عيونهم قسوة وغضب ورفض . . كأنما انتزعت قلوبهم من أماكنها . في عيونهم سخرية واضحة . . وملفات وأرقام وحساب وصفقات متكافئة وحديث للعقل ، لا أحد منهم كان في قلبه نبض ما . .

واجههم عصام بنظرة متجهمة غاضبة وغادر المكان دون أن يعيرهم أي التفات .

ولمح السيارة الخاصة وهي تبتعد إلى عرض الطريق وياسمين بداخلها كملكة متوجة .

كانها امتلكت سعادة العالم كله . . كأنه تشعر بآدميتها لأول مرة . .

وغمغم لنفسه : ما أبسطها . . وأروعها . . هل يمكن أن تجلب مثل تلك الأشياء الصغيرة السعادة إلى قلب إنسان بمثل هذا الشكل . . وإذا كان هذا صحيحاً فلماذا يضن البعض من البشر بأسباب السعادة على غيرهم من خلق الله؟

واستقل سيارته عائداً إلى الطابق العشرين ، في برج والده

وهو يشعر بالرضى الكامل.

* * *

وبقيت ياسمين طوال الليل راقدة في فراشها تحتضن زهرة الياسمين الناضرة.

منذ أن غادرت مبنى الإدارة ودموعها لم تفارق عينيها.. ولكنها دموع مختلفة..

دموع سعادة لم تجربها من قبل.. كانت دموعها في السابق أحزاناً وآلاماً.. على أشياء كثيرة افتقدتها في حياتها.

دموع على أسرة فقدتها مبكراً.. وعلى عالم حكم عليها أن تعيش أسيرة صمته.. وعلى كلمات سلبها القدر حتى القدرة على النطق بها.. وعلى شكوى سلب منها حق النطق بها.

كانت ترى نفسها دائماً أقل من كل الفتيات حولها. في أحيان كثيرة كانت تتمنى الموت لنفسها لتتخلص من إحساسها بالعجز والهزيمة في هذه الدنيا القاسية.

وقاومت طويلاً إحساسها بالهزيمة.. قاومت بقسوة لتشعر انها حية تعيش وتتنفس.. قاومت لتدخل كلية التجارة.. وقاومت لتحصل على شهادتها.. وقاومت كل نظرات

السخرية والاستهزاء الموجهة إلى تلك الصماء البكماء التي تصر على منازلة الأصحاء والتفوق عليهم.

ولكن مقاومتها تبددت هدراً عندما وجدت مصيرها في النهاية عاملة مهمتها تنظيف المكان ورص المعلبات في الأدراج الخالية. .

وقتها فقط أحست بالهزيمة المريرة. . وبأن كل ما حاربت وصارعت وعاشت لأجله فترة طويلة قد تبدد. .

كأن كل ما حصلت عليه كان بلا قيمة. . وتأكدت بأنها ستعيش عمرها كله أسيرة عجزها. . ولن يرى فيها العالم كله غير فتاة صماء بكماء مهما فعلت.

صارت تأكل وتشرب وتتنفس لمجرد أنها لا تملك أمر حياتها. .

وهكذا ماتت وهي حية. .

ثم جاء هو. .

وانسالت دموعها غزيرة. . دموع السعادة التي لم تجربها من قبل قط. .

دموع الفرح والاشتياق والرغبة في الحياة. .

كان أول إنسان لا ينظر إلى عاهتها. .

أول إنسان يرى فيها شيئاً كاملاً دون نقص. .

أول رجل يرى فيها فتاة كاملة . . ويفضلها على كل نساء الدنيا أجمعين . . .

أول من عاملها كإنسانة كاملة الصفات . . وأعاد إليها حقوقها المسلوبة و . .

أول من منحها الإحساس بأنها صرعت المعاناة وقهرتها . . وأن حياتها كانت انتصاراً على قسوة العجز . . ومرارة الاغتراب في العالم .

كان هو أول من منحها زهرة . . زهرة الياسمين . . كأنه يعيد إليها ذاتها الضائعة . . أول من باحت عيناه لها بكلمات لم تقرأها في عيون العالم كله .

كلمات حب . .

هو يحبها . . قرأت ذلك في عينيه . . لو أنه نطقها بلسانه لربما شكّت في صدقه . . لربما ظنت أن له غرضاً خفياً . . لربما ظنت أن أذنيها خدعتاها . . لربما ظنته واحداً من ألوف البشر الذين رأتهم يثرثرون بكلمات كثيرة كثيرة بلا معنى .

ولكن عينيه ما كان يمكنهما أن تخدعاها . . هي عاشت عمرها كله تقرأ في عيون من حولها مشاعرهم الحقيقية تجاهها . . وليست المشاعر الزائفة فوق ألسنتهم .

لكم قرأت من مشاعر الإشفاق والسخرية والاستهزاء . .

هو الوحيد الذي لم تنطق عيناه بالقسوة .

هو الوحيد الذي منحها الحب بلا ثمن وبلا حدود ودون غرض . .

وقد كان هذا يكفيها .

ولو أنها ماتت في هذه اللحظة ، لقالت لبارئها أنها عرفت طعم السعادة الحقيقية ، عرفت طعم الحب الطاهر .

وهل يمكن ألا تحبه . . وكيف كان باستطاعتها ألا تحبه . .

إنها منذ أن شاهدته يعيد إليها حذاءها الضائع تعلقت بأهدابه برغم فرارها منه ، منذ عرفت أنه أختار لها مكتباً تجلس عليه وقلماً تنطق به ووظيفة تناسب مؤهلها أحست بطوق فضله يأسرها . .

منذ أهداها تلك الزهرة وهي تشعر أنه قد أنبت قلبها الجريح أزهاراً لم تكن تدري عن وجودها شيئاً في هذا العالم . .

منذ أشارت أصابعه بلغتها ، امتلكت هذه الأصابع أمرها ورسمت طريق النهاية . . منذ سألها عن حالها وهي تشعر أن همس أصابعه لغة ساحرة تفتح أمام بصرها كل متع العالم

وأفراحه وتحمل عنها كل هموم العالم.

كيف يمكن ألا تحبه وهو أول من سقى مشاعرها المجدبة وقلبها اليابس، أنهاراً من الحنان والحب؟

وامتدت أصابعها المرتعدة تخرج شيئاً من تحت وسادتها..

قصة قديمة للأطفال حصلت عليها يوماً ما.. ومن وقتها صارت لا تفارقها..

قصة سندريللا.

لكم حلمت واشتاقت ان تكون سندريللا.. وأن يأتي أمير أحلامها وينتشلها من مرارة الواقع وبؤسه.. لكم بكت.. وتعذبت و كواها اليأس وحرمها من تحقيق الحلم والرجاء؟

ولكن ها هو أمير أحلامها يبرز بطريقة غير متوقعة، ليبارز كل الأحزان والآلام ويقهرها.. ها هو أمير أحلامها وفارس قلبها يختطفها فوق جواده الأشهب ويحلق بها فوق كل أحزان العالم.

وأغمضت عينيها بعد أن أصابها الوهن.

أغمضت عينيها وأصابعها تحتضن زهرة الياسمين.. و كتاب الحكايات.

* * *

«وجهان من الماضي»

كـان اليـوم التـالي هو الجـمـعـة. . وانهـمـكت ياسـمين في أعـمـال تنظيف الملجأ مـع بعض زمـيـلاتهـا. . عندمـا أرسلت مديرة الملجأ تستدعيها إلى مكتبها. .

وهناك فـوجـئت بعـصـام جـالسـاً في انتظارها. . وشـحب وجهها من المفـاجأة وهي في ملابسها المنزليـة، ويداها غارقتان في المياه وشعرها قد تناثر في فوضى حول وجهها.

وكـادت تندفع هاربة لتـخـتفي مـن وجهـه، ولكن إشـارته المفاجئة أوقفتها مكانها. .

كانت أصـابعه تقول لهـا: لقد جئت لأدعوك إلى نزهة. . فهل توافقين؟

شـحب وجهـهـا أكثر وتصـاعدت الدمـاء إلى وجـهـهـا. .

والتفتت إلى مديرة الملجأ كأنها تطلب منها العون ، فهزت المديرة رأسها كأنما تعلن عدم رفضها الشخصي . . وكأن ثمة اتفاقاً بين المديرة وعصام تجهل تفاصيله .

نكست ياسمين رأسها في خجل وقلبها يرتعش بفرحة جنونية . .

ما كان يمكن أن تحلم بما يحدث الآن . .

وانطلقت كطفلة سعيدة تغير ملابسها . . ثم وقفت لاهثة تنتظر الإذن بالخروج من المديرة .

وقالت المديرة لعصام : أنا أعتبر ياسمين بين يديك . . فهي كابنتي تماماً .

فقال في لهفة : لا تخشي شيئاً . . سوف أحافظ عليها أكثر من نفسي .

وتعلق بصر المديرة بياسمين التي ارتعشت ملامحها من السعادة والفرحة . . ودلت نظراتها المتلهفة المتوثبة إلى أنها تبادل عصام مشاعره . . وهي ما كانت تستطيع أن تفرق بين قلبين قد تعلق كل منهما بالآخر . . وهي ما كانت تستطيع أن تجد في العالم إنساناً آخر يمكن أن يحب ياسمين بمثل تلك القوة .

استقرت ياسمين داخل سيارة عصام . . وأشار إليها متسائلاً : أين تفضلين الذهاب؟

أجابته على الفور : حديقة الحيوان .

ولكنه نظر إليها في حيرة . . وأدركت أنه لم يفهم إشارتها . .

وعرفت في تلك اللحظة أنه كان يتعلم لغة الإشارات خصيصاً بسببها . . وأن كلمات وإشارات كلمتي الحيوان لم تدخل قاموسه بعد ، فابتسمت في رقة وهي تطالعه في إشفاق .

وكان عليها أن تبذل مجهوداً من جانبها . .

وبيديها وإشارتها وحركات وجهها قلدت له حيوانات الحديقة وطريقتها في المشي وهيئتها .

وانطلق عصام ضاحكاً من أعماقه بسبب إشاراتها الكوميدية . . ووجدت نفسها تجاوبه ضحكاته الصافية . . أول مرة كانت تضحك بمثل هذه السعادة منذ تفتحت عيناها على الحياة .

وعندما مست أصابعه كفها الرقيقة وهما يدخلان الحديقة أحست بارتعاشة قلبها تهز بدنها . .

أول مرة كانت تضع كفها في يد إنسان ما . .

معه دائماً كانت تفعل أشياء كثيرة لأول مرة. .

وراحا يتنقلان بين أقفاص الحيوانات المختلفة والطيور المتنوعة. .

ووقفت ياسمين طويلاً تحدق في قفص الأسود. . وعندما زأر أحدها لاحظت أن جميع الواقفين قد تراجعوا إلى الخلف خوفاً. . فالتفتت إلى عصام تسأله : هل صوت الأسد مخيف إلى هذا الحد؟

فأجابها بأصابعه : إنه مخيف جداً، ويجعل أشد الناس شجاعة يرتعدون هلعاً.

وأمام قفص الطيور المغردة سألته : هل أصوات هذه الطيور ممتعة؟

فأجابها : إنها رائعة جداً. . وتثير السعادة والراحة في قلب من يسمعها.

ولكن ياسمين أحنت رأسها لتخفي اضطرابها. . فما كان يمكن أن يكون هناك شيء في العالم يجلب لها سعادة أكثر من تلك التي تحسها مع عصام.

كانت كل الكائنات حولها صامتة ساكنة برغم حركتها وصخبها. . وليس أقسى من السكون الإجباري الذي تفرضه

الأقدار على أي إنسان . . كأن صاحبه ميت في عالم حي نابض بالصخب . وهي اعتادت أن تشاهد هذا السكون دائماً . . عالمها كله إشارات وحركات . . لا صوت ولا حس . . ولكن العجيب أنه عندما صار عصام قريباً منها إلى هذا الحد ، شعرت كأنها تسمع العالم كله . . كأن قلبها حل مكان أذنيها . . كأن عصام هو الأذنان اللتان صارت تسمع بهما وتميز .

خيل إليها أنها باتت قادرة على أن تسمع صياح الأطفال وزقزقة العصافير . . وحتى صوت تنفس عصام .

أما هو أراد أن يغلق أذنيه بإرادته . . أراد أن يشاركها عالم الصمت الذي تحيا فيه . . أراد أن يتوحد معها فيغلق مسام سمعه بإرادته . .

ما كان يريد حاسة أو ميزة تشعره بأنه مختلف عنها . . ولو شاء لاختار لنفسه عالم الصمت الأبدي لكي يقترب من محبوبته أكثر .

وجلسا يتناولان الشاي في حديقة النباتات . .

واختار لها عصام وردة حمراء قدمها إليها فتناولتها بأصابع مرتجفة .

وتحركت أصابعه كما لو كانت تفتح عالماً سحرياً أمامها . .

تحركت كما لو كانت هي المفتاح الذي سيفتح لها كل أبواب السعادة في العالم .

همست أصابعه تقول في رقة : أنا أحبك .

ارتعشت شفتاها . . وارتجفت أصابعها . . واضطربت نظراتها .

في حياتها كلها ما تمنت أكثر من أن تسمع هذه الكلمة من الإنسان الذي يحبها ويختارها عن العالم كله .

وها هي اللحظة المختارة تتجسد واقعاً حياً . . وليس حلماً أو وهماً أو أمنية . .

نطقت أصابعه بحروف الكلمة فشعرت ياسمين كأن العالم كله حولها يغرد ويطلق زغاريد السعادة . .

كأن العالم صار أكثر بهجة وفرحاً وأملاً . .

لم تكن تدري أن هذه اللحظة في حقيقتها أجمل كثيراً مما تخيلت وأشد روعة .

وارتجف بصرها ونكست رأسها في خجل . . وأحست بأصابعه تمس كفيها المتوترتين . . أرادت أن تسحبها ولكنه

تشبث بأصابعها فأغمضت عينيها كأنها تخشى أن تضيع منها اللحظة.

وعندما فتحت عينيها ثانية شاهد عصام فيهما حزناً عميقاً..

ورأى دموعها.. كانت دموع حزن وليست سعادة..

وقال يسألها في توتر: لماذا تبكين؟

فأجابته دون أن تمسح دموعها: أخشى أن تتبدد هذه السعادة التي أشعر بها بسبب قوة أكبر من إرادتنا.

قال لها: لا تخشي شيئاً.. لن يستطيع إنسان أن يفرق بيننا.. أنا مستعد أن أحارب العالم كله لأفوز بك.

قالت له: لا أرضى لك الخسارة.

قال: لو أنني فقدتك.. لخسرت أجمل ما في حياتي..

نكست رأسها حزينة وقالت أصابعها في ألم: لعلك تشفق علي.. ويختلط الأمر فتظنه حباً.. ويوماً ما ستفيق على الحقيقة فيصيبك الندم.. أنا لن أغضب منك ولن اكرهك إذا ما وجدت أن مشاعرك ليست حباً.

وأجابها في إصرار: لا تتوهمي غير الحقيقة.. أنا أحبك.. أحبك.. أحبك.

لم تسأله ماذا ستكون نهاية هذا الحب.

خجلت أن تسأله..

أو ربما خشيت من الإجابة.

كانت تدرك أن هناك صعوبات عديدة.. وكأنها أرادت ألا تفيق من حلاوة الحلم على قسوة الواقع.

وعادا إلى الملجأ دون أن تسأله.

وهناك كانت مفاجأة في انتظارهما..

كان ثمة رجل كهل يستند على عصا وامرأة عجوز شبه ضريرة، جالسان في انتظار ياسمين، كأنما هما وجهان يطلان من الماضي.. وعندما خطت مع عصام إلى داخل مكتب مديرة الملجأ، اندفع الكهل والمرأة العجوز إلى ياسمين، وراحا يحتضنانها بشدة ويقبلانها، وهي تنظر إليهما في دهشة وتعجب.

وحدق عصام في مديرة الملجأ مندهشاً.. ثم أدرك السر بغتة عندما هتفت العجوز منتحبة وهي تطوق ياسمين بذراعيها: آه يا ابنتي.. كيف طاوعنا قلبنا على أن نتركك كل هذه السنين؟

والتفتت ياسمين حائرة إلى مديرة الملجأ، فأجابتها الأخرى

بلغة الإشارات في حزن قائلة : إنه السر الذي أخفيته عنك طوال هذه السنين ، فقد تكشف رغماً عني . . فإن والديك لم يموتا قبل دخولك الملجأ . . بل كانا هما اللذان أودعاك به وأنت طفلة لا تعي شيئاً .

تراجعت ياسمين إلى الوراء خطوة في ذهول وهي تحدق في الكهل والعجوز غير مصدقة . .

وأكملت المديرة : وهما الآن صارا عجوزين وحيدين لأنهما لم ينجبا غيرك . . وقد جاءا لاستعادتك ثانية لتعيشي معهما فتؤنسي وحدتهما .

تراجعت ياسمين إلى الوراء خطوة أخرى وقد اتسعت حدقتاها في ذهول أشد . . وحدقت في الكهل قائلاً وهو يحتضنها : آه يا ابنتي الغالية . . كيف صرت عروساً رائعة .

ولكن ياسمين دفعتهما في قسوة . . أرادت أن تصرخ . . أن تبكي . . أن تمزق شعرها . .

كانت المفاجأة قاسية . . قاتلة . . طعنة في الصميم .

عاشت عمرها كله تلوم القدر لأنه حرمها من السمع والنطق . . وضاعف آلامها بحرمانها أيضاً من والديها . . والآن فقط تكتشف أنهما كانا حيين يرزقان . . وأنهما تخليا

عنها وأدخلاها الملجأ ليتخلصا منها ومن عاهتها . .

تمنت لو أنها ماتت وما لاقت هذه اللحظة . .

الموت كان أهون من أن تكتشف أن أغلى إنسان عليها في الوجود . . الأب والأم . . قد ضحيا بها بلا مقابل . . تخلصا منها ولم يحتملا عاهتها . .

إن كان والداها لم يحتملا عجزها . . فكيف كان لها أن تشكو قسوة العالم كله؟

.صرخت وصرخت وصرخت . .

ولكن صرخاتها كانت بلا معنى . . بلا كلمات . . بلا تعبير عما تريد قوله . .

في تلك اللحظة كرهت نفسها وكرهت عجزها . . لأنها ما كان باستطاعتها أن تخبر هذين الأبوين القاسيين بما تريد أن تقوله لهما . .

تمنت لو أن الله منحها لساناً للحظة واحدة لتنطق به أمام هذين المتحجري القلب بما تريد أن تقوله لهما . . فاضت عيناها بالمرارة وسكبت دماء بدل الدموع . .

وقال الكهل في إصرار : سوف تعودين معنا إلى المنزل . . أنت ابنتنا وليس لك غيرنا .

وقالت الأم في قسوة : لقد جئنا لنصلح غلطة ارتكبناها دون وعي . . ولنهبك مشاعرنا إلى الأبد .

ولم يحتمل عصام أن يسمع المزيد . . وصاح في غضب : أي غلطة هذه التي تتحدثان عنها أيها القاسيان المتحجري القلب . . عن أي مشاعر تتحدثان وأنتما اللذان تركتما طفلة بريئة مسكينة لتعيش يتيمة في ملجأ للأيتام وأنتما على قيد الحياة . . وحرمتماها من أجمل المشاعر ، وضاعفتما من إحساسها بالألم والحزن والمرارة ، وهي تصارع مشاعر العجز ومشاعر اليتم ، وتفتقد حتى أبسط الأشياء . . وأنتما تنعمان بحياة رغدة سعيدة بعد أن تخلصتما مما ظننتماه عبئاً عليكما . . وبعد أن عشتما حياة طويلة عريضة لم تتذكرا فيها لحظة أنه كانت لكما ابنة ألقيتما بها في أتون الحياة والحرمان دون ذنب منها . . الآن فقط تذكرتماها وجئتما لاستعادتها باسم الأبوة . .

الآن فقط بعد أن أصابكما العجز وأصبحتما في حاجة إلى من يعولكما ويقوم بخدمتكما ، تذكرتما الابنة التي تخلصتما منها . . جئتما الآن لتحصلا على خادمة باسم الأمومة والأبوة . . جئتما تذبحانها ثانية؟

وعلا صراخه وهو يواصل في ثورة : أيها الشريران . . حتى الحيوانات تكون أكثر شفقة بأبنائها . .

ولكن الله العادل شاء أن يعاقبكما وأنتما لا تزالان على قيد الحياة قبل عقابكما في الحياة الأخرى . . فلم يرزقكما بأبناء آخرين، لأنكما رفضتما الابنة الوحيدة التي منحها لكم . . والآن وكما حكمتما على هذه الابنة أن تعيش مرارة اليتم وأنتما حيان . . حق عليكما أن تعيشا بقية حياتكما في مرض وعجز دون أن تجدا من يشفق عليكما ولو بمنح يد المساعدة . . فقد صرتما ميتين في نظر هذه الابنة . . وستظلان ميتين إلى الأبد . . ولن ينبض قلبها بذكركما أبداً.

صاحت العجوز في غضب وحشي : إنها ابنتنا وسنستعيدها بقوة القانون .

أجابها عصام ساخراً : لقد بلغت ياسمين سن الرشد، ولن يكون من حقكما استعادتها أبداً . . وأي محكمة في العالم لن تحكم بأن تعود ابنة بريئة مسكينة إلى أبوين عاقين لا يستحقان أي شفقة .

إندفع الكهل غاضباً نحو عصام، وهزه في عنف صارخاً : من أنت أيها الوقح، ومن الذي أعطاك الحق لكي تتكلم باسم ابنتنا؟

أجـابه عـصـام في حنان ورقـة : أنا خطيب ياسـمين . .
وسنتزوج قريباً .
ترامق الكهل والعجوز في غضب . . أدركا أن لا فائدة . .
وتراجع الاثنان وهما يدمدمان بكلـمات غاضـبة . . بأنهـما لن
يسكتا وسيقيمان الدنيا ويقعدانها .
ثم غادرا المكان . .
ووقف عصام وياسمين يترامقان في صمت .
كان هو لا يزال غـاضباً ثائـراً كأنه أراد خوض المعركة إلى
نهايتها . .
أمـا هي فكانت جـريحـة ذبيـحـة . . دموعـهـا تتـسـاقط في
صمت ودون كلمات . .
إقترب منها عصام في ألم . . أمسك بأطراف أصابعها المبللة
بالدموع . . وهمس يقول : بعد الآن لن تعرف الدموع طريقها
إلى عينيك وأقسم على ذلك . .
ورأى في عينيهـا شكراً لا حد له . . شكر لأنه ذاد عنها . .
ولأنه نطق بما أرادت أن تقـول . . كأنه اللسان الذي منحه الله
اياه لتنطق بما فاض به قلبها من آلام . .
فهـمت كلماته دون أن يعبر عنها بلـغة الإشارة . . شـعرت

أنه الملجأ والملاذ الوحيد لها . . إنه الطمأنينة التي عاشت عمرها كله تبحث عنها لتحتمي بمظلتها . . ما عادت تخشى العالم كله وهو بجوارها .

رفع عصام أصابعه إلى شفتيه وقبَّل أطرافها . . وهمس يقول لها : إنني أعتبرك الآن وقد صرت خطيبتي حقيقة . . وبعد أن يعود والدي من الخارج لن يكون هناك أي سبب يمنع زواجنا .

فتحركت أصابع ياسمين بين كفيه القويتين .

تحركت الأصابع لتنطق بعبارة وحيدة مرتجفة نطقت بها العينان . .

همست الأصابع تقول له : أحبك أكثر من هذا العالم كله .

ثم استكانت بين كفيه تحتمي بهما من العالم كله .

* * *

«المواجهة»

راح نظمي بك يحشو غليونه في صمت . . ثم أشعله بولاعة ذهبية ، والتقط منه بضعة أنفاس متلاحقة دون أن تفصح عيناه عما يدور في ذهنه ، وأخيراً إلتفت إلى عصام قائلاً : كيف الحال؟

أجابه عصام وهو يقدم له مجموعة من التقارير : لقد سار العمل أثناء غيابك على ما يرام .

قاطعه نظمي بك في صوت بارد عميق :

ـ أنا لا أحدثك عن العمل .

وأطلق زفرة من الدخان الغاضب وهو يكمل : أنا أتحدث عن تلك الفتاة الخرساء .

شحب وجه عصام وتعقد جبينه ولم ينطق . . وواصل والده : لقد أخبرني الجميع في الشركة بتلك القصة التي

صارت على لسان كل الموظفين يتندرون بها .

كبت عصام غضبه وقال :

- أنا لم أفعل شيئاً غريباً أو خاطئاً لكي يتقوّل عليّ موظفو الشركة .

التفت إليه والده مقطباً وهو يجاهد ليكبت غضبه ، ثم قال في بطء : وبماذا إذن تسمي ما حدث؟

- لقد أحببت ياسمين . . وليس في ذلك أي خطأ .

- أحببتها؟

نطق بها الأب في استنكار شديد ثم انفجر ضاحكاً وعصام يراقبه مقطباً . . وأخيراً توقف نظمي بك عن الضحك وهو يقول : هذا آخر ما كنت أتوقعه . . لم يكد يمضي على عودتك من الخارج بضعة أيام حتى تقع في الحب . . وممن . . من فتاة خرساء تعيش في ملجأ للأيتام؟

اندفع عصام يقول :

- ليس في ذلك ما يعيب ياسمين و . .

صاح فيه الأب بغضب حاد : عندما أتحدث فلا تقاطعني ، وعليك أن تستمع لي حتى النهاية . . فأنا لا أسمح أن يكون ابني مصدراً لسخرية موظفي شركاتي . . وأن يتهكم الجميع

على تلك الخرساء التي عينت في إدارة الحسابات وصارت هناك سيارة مخصصة لتنقلاتها . . على حين لا ينعم مدير شركاتي بمثل هذا الامتياز .

قال عصام في بطء : قد أكون أخطأت بشأن تخصيص تلك السيارة . . ولكني لا أظن أنني أخطأت بشأن إلحاق ياسمين بإدارة الحسابات .

وبرق صوته وهو يضيف : كنت أظن أنك ستسعد بذلك يا أبي لأنني أمنح أملاً جديداً لفتاة قست عليها ظروف الحياة والطبيعة . . وأنت نفسك كنت رفيقاً بها وبغيرها من فتيات الملجأ فألحقت بعضهن بالعمل في شركاتك ، وكنت تمنح هذا الملجأ مبلغاً من المال كل فترة ، فلماذا يغضبك ما فعلته .

قال الأب في قسوة : لو كنت أعرف أن منحي لهذا الملجأ وتشغيلي لبعض فتياته سينتهي بمثل تلك النهاية لما مددت يد المساعدة إلى هذا المكان أبداً .

وأضاف وهو يهب واقفاً في غضب : اسمع . . هناك أشياء كثيرة نفعلها دون أن نكون نقصدها بذاتها . . وأنا طوال حياتي لم يكن يهمني أن أشفق على الفقراء أو الأيتام . . ولكن كان يهمني بشدة أن يقال أنني رجل بر وإحسان ، فإن

ذلك يسهل كثيراً من أعمالي وصفقاتي، ويفتح لي أبواباً كثيرة مغلقة.

شحب وجه عصام ولم ينطق.. وأدرك أنه يكتشف أشياء جديدة في والده.. وأن المال عندما يمتلك قلب إنسان فإنه يقتل بقية مشاعره.

وواصل الأب قائلاً: وأنا عندما أرسلتك الى الخارج للتعلم، وأنفقت عليك عشرات الألوف لم أكن أظن أنك في النهاية، وبعد أن تعود إليَّ ستتعلق بفتاة خرساء صماء تربت في ملجأ.. وتقع في حبها.

قال عصام وهو يحاول التحكم في انفعاله: هذا هو اختياري يا والدي.. و..

قاطعه الأبُ في صوت حاد ثائر: أخبرتك من قبل أنني عندما أتحدث فلا أقبل أن يقاطعني إنسان.. ولو كنت أنت.

وبإشارة مهددة من أصبعه أكمل آمراً: إنك سوف تنسى هذه الفتاة.. والآن..

تقلصت ملامح عصام وقال:

- إنني لم أحب ياسمين بأمر.. لكي أنسى حبها بأمر آخر مضاد.

تساءل الأب مصدوماً : ماذا تعني بذلك؟

- إنني وياسمين مخطوبان . . وسوف نتزوج .

- ماذا؟

بان الجنون في عيني الأب . . وغمغم في ذهول : تتزوجان . . يبدو أن الأمر أكبر مما ظننت ، وأنا الذي اعتقدت أنها مجرد نزوة؟

وعلا صوته في هذير صاخب : هل تريد الزواج من هذه الخرساء حقاً؟

- إن قلبي لم يختر سواها .

- أنت لا تزال طفلاً مراهقاً يتحكم فيك قلب غرير ومشاعر بلهاء .

- إنني ناضج بما فيه الكفاية لأدرك حقيقة ما أفعله .

- أنت مجنون . . مجنون . . إنني أستطيع أن أشتري لك حب أجمل فتاة في العالم بمالي . . اختر فتاة أخرى تريدها بشرط أن تكون ذات حسب ونسب وجاه ، وأنا أشتري لك حبها بأي ثمن .

ولكن عصام واجه والده بعينين حزينتين قائلاً : إن المال لا يشتري العواطف الصادقة يا أبي . . صدقني ، الحب الحقيقي لا يشترى بالمال أبداً .

راح الأب يهـز ابنه في عنف وقـد اتقـدت عيناه شـرراً، وواصل في غضب مشتعل : إنك سوف تمتثل لأمري وستترك هذه الفتاة رغماً عنك.

- محال يا أبي.

- ماذا تعني بذلك . . هل تتحدى إرادتي؟

- إن لك الحق يا أبي أن تتحكم في أشياء كثيرة بشأني . . ولكن ليس في من أحب أو أتزوج.

صاح الأب في غضب هادر : سوف أمنع هذا الزواج بأي ثمن مهما أنفقت من مال.

واجهه عصام في مرارة قائلاً : أنت قلت يا أبي أن مال العالم كله . . لا يمكن أن يمنع القدر.

وأضاف في حزن : وقدري أن أحب ياسمين . . وأن أتزوجها برغم كل الظروف . . ولن يستطيع مال العالم كله أن يفرقنا.

- إنك بذلك تقضي على نفسك . . وتختار أن تطرد من جنتي.

- لا أظن أنني أعتبر المال جنة يا أبي لأندم على الخروج منها.

وطافت بعينيه ذكرى حزينة فقال : يكفي أنك اخترت لي يا أبي مَنْ أكـون فـمنعـتني من دراسـة الفـن التي كنت أتمـناها واخترت لي مستقبلاً يناسبك أنت . . وشهادة تتباهى بها أمام الجميع ، وتحدثني الآن عن عشرات الألوف التي أنفقتها في سبيلها . . وحرمتني حتى من رؤية أمي على فراش الموت أو وداعها . كما حرمتني من أن أعيش بقربها وهي كانت الصدر الحنون لي . . والآن تريد أن تحرمني ممن أحببت واشتقت . . لا يا أبي . . ليس هذا عدلاً . . أنا أيضاً إنسان ومن حقي أن أختار لنفسي . . ومن حقي أن يكون لي إرادتي واختياري .

هوت صفعة الأب فوق وجه عصام . . وانطبعت الأصابع القاسية بلون دموي فوق الخد الشاحب . . وغمغم نظمي بك وهو يجز على أسنانه : سيدو أن سفرك للخارج قد أفسدك .

قال عصام في ألم : بل المال هو الذي أفسد أشياء كثيرة في حياتنا يا أبي .

ـ أنت سـفيـه ولا تدري ما تقـوله . . إن المال هو القـوة الوحيدة في هذا العالم .

ـ وأنا أرفض أن تتحكم فيَّ أي قوة .

زمجر الأب في غضب قائلاً : يبدو أنك في حاجة إلى

درس قاسٍ لتفيق من أحلامك وأوهامك . .

وأشار بيده في سخرية حادة مضيفاً : حسناً . . تزوجها . . ولنر كيف ستنفق عليها ، وأين ستقيم مع تلك الغادة التي سلبت قلبك . . ولنر كم ستصمد ومتى ستعود إلي طالباً العفو والصفح . . والمال .

احتقن وجه عصام . . وتحرك نحو باب المكتب . . ولكن صوت والده أوقفه قائلاً : ولكن هناك شيء يجب أن تعلمه قبل أن تغادر هذا المكان . . وهو أنني سأقوم بطرد كل هذه الفتيات اللواتي عينتهنَّ من الملجأ . . وسأمنع أي مساعدةٍ لهذا الملجأ بعد ذلك . . ولنر الآن كيف ستعوض مشاعرك النبيلة هذا المال .

* * *

«الزواج»

اخفى عصام وجهه بين كفيه وهو يشعر بألم حاد وحزن مرير . . وربت جلال فوق كتف صديقه مشفقاً، فهمس عصام في مرارة : لم يكن من ملجأ غيرك .

أجابه جلال في لهفة وصدق :

ـ إن منزلي مفتوح لك على الرحب والسعة .

وأكمل في إشفاق : لم أكن أظن أنك تحبها إلى هذه الدرجة . . أنت إنسان نبيل يا عصام .

رفع عصام وجهه إلى صديقه . . خشي أن يكون في كلماته رائحة تهكم . . ولكن جلال واصل قائلاً : من يضحي بكل هذا المال في سبيل حبه هو إنسان نبيل حقاً . . في زمن اختفت فيه الأخلاق النبيلة .

ـ كان رأيك عكس ذلك من قبل؟

ـ كنت أريد اختبارك . . وخشيت عليك في نفس الوقت من قسوة والدك ورفضه . . ولكن صمودك حتى النهاية لم يدع مجالاً للشك في حقيقة حبك لياسمين .

وأكمل وعيناه غارقتان في الحزن : لا تظن أنني غير متألم بسبب فقد خطيبتي التي باعتني بالمال . . إن قلبي ينزف حتى هذه اللحظة ، وقلت لنفسي وقتها : إنه لا حب في هذا العالم إلا في الكتب . . وعاهدت نفسي ألا أجعل مشاعري تتحكم فيَّ ثانية . . ولكن ها أنت تثبت لي أنني كنت على خطأ . . وانه ليس هناك أعظم من الحب . . بشرط أن نهب حبنا لمن يستحقه .

وامتلأت عينا جلال بالدموع فاحتضنه عصام في إشفاق . . وهمس بعد لحظة في حزن : ما يؤلمني هو أن أبي سيطرد هذه الفتيات المسكينات نزيلات الملجأ من العمل لديه ، وسيمنع المال عن الملجأ .

ـ دعه يفعل ما يريد . . فالله لا ينسى مخلوقاً . . وإذا كان أبوك قد تبرع بالمال وفرص العمل من أجل الدعاية لنفسه وليس حباً للخير ، فإن نزيلات الملجأ لسن في حاجة إلى هذا المال الذي لا يأتيهن لوجه الله .

وضاقت عيناه وهو يضيف : إن البنك الذي أعمل فيه كان ينوي نشر إعلان لطلب موظفات للسكرتاريه لدينا . . وسأقنع مدير البنك بتعيين هؤلاء الفتيات في الشركة بدلاً من عملهن لدى والدك . . وهو رجل نبيل لا أظن أنه سيرفض هذه الخدمة الإنسانية ، أما بخصوص المال الذي منعه والدك عن الملجأ ، فهناك بند خاص للتبرعات الإنسانية ينفق منه البنك الذي أعمل فيه على بعض وجوه الخير ، ولن يكون من الصعب أن يدرج ضمن وجوه الخير في البنك الإنفاق على هذا الملجأ ونزيلاته .

هتف عصام في فرحة طاغية :

ـ أنت إنسان عظيم يا جلال .

ـ المحنة دائماً تجعلنا نشعر بآلام الآخرين . . وأنا قد عشت محنة صعبة كادت تدمرني بعد أن فقدت إيماني بأشياء كثيرة . . ولكني الآن استعدت ما ضاع مني بفضلك يا صديقي العزيز . . وسأبدأ من جديد بإيمان أن الحب الحقيقي لا يزال موجوداً في هذا العالم ، فقط عليّ أن أعثر عليه وإن طال الوقت .

ومرت لحظة صمت قبل أن يتساءل جلال في إشفاق :

ـ والآن ماذا ستفعل يا صديقي؟

ـ سوف أتزوج ياسمين فوراً.

ـ ولكن . .

ـ أعلم أنني سأواجه ظروفاً صعبة ولكنني مستعد لمواجهة أسوأ الظروف . . وسأقيم في شقة مؤقتاً مع ياسمين بعد زواجنا، فإن لدي بعض المال القليل الذي ادخرته من عملي في أمريكا . . فوالدي لم يكن يعرف أنني أعمل هناك بجانب دراستي . . وسوف أبحث عن أي وظيفة غداً بشهادتي أو حتى لو اضطررت لأي عمل يدوي و . .

ولكن جلال قاطعه قائلاً : إنك لن تضطر للبحث عن وظيفة يا عزيزي . . فهي موجودة في انتظارك.

فتساءل عصام في دهشة : ماذا تقصد بذلك؟

أجابه جلال باسماً :

ـ أقصد أن البنك الذي أعمل فيه كان في حاجة إلى مدير فرع حاصل على الدكتوراه في الاقتصاد في تخصصك . . ولحسن الحظ فإننا لم نعثر على شخص يمتلك هذه الشهادة برغم نشرنا عدة إعلانات، وبالطبع فإنني لم أخبرك عنها لأنني لم أتخيل أبداً أنك ستترك إمبراطورية والدك لتبحث عن أي

وظيفة أخرى . . ولكن . . يبدو أن هذه الوظيفة كانت تنتظرك يا عزيزي منذ البداية .

ـ آه يا صديقي العزيز الوفي .

وتعانق الاثنان بشدة في إخلاص بالغ .

* * *

ولكن أصابع ياسمين الباكية قالت : لا أريد أن أشعر بأنني كنت السبب في ابتعادك عن والدك وخروجك عن طاعته . .

فأجابها : للطاعة حدود . . وأنا أخطأت لأنني انسقت وراء رغبات وأوامر والدي منذ البداية وتركت له حياتي ليرسمها كما يشاء . . ولكن لن أكرر خطئي هذه المرة .

ـ أخشى أن تندم يوماً ما على هذا الاختيار .

ـ لم أندم أبداً . . بل العكس ، وسأفخر بك لإنك منحتني الفرصة الوحيدة التي أتيحت لي لأثبت ذاتي ، ولأكسر الطوق الذي سجنني فيه والدي . . وأرجو من الله أن يفيق والدي قبل فوات الأوان ، ويدرك أن مال العالم كله لا يساوي لحظة مشاعر إنسانية صادقة . . وليتأكد أنني اخترت أعظم قلب في العالم لأنعم بدفئه وحنانه .

فتأملته بشوق الدنيا وهمست أصابعها .

ـ هل تحبني بهذا القدر؟

فأجابها في لهفة طاغية بنفس اللغة :

ـ أحبك أكثر مما تتخيلين أو تظنين . . ولا أظن أن لحياتي بدونك أي قيمة .

وهكذا تزوجا في الليلة ذاتها . .

وبدأ نهر السعادة في الفيضان .

* * *

«الحفيد»

عندما تأتي السعادة بعد طول حرمان وآلام . . يصبح مذاقها مسكراً شهياً . . وهما قد غرقا في لحظات السعادة يغترفان منها ما شاءا دون أن يخشيا غدر قدر أو سطوة مال .

فعندما تسكن القلب نعمة القناعة ولهب الحب ، فإن كل ما حولنا يبعث على السعادة ولو كان أتفه الأشياء . .

صارت كل تفاصيل حياتهما هي السعادة ذاتها . .

مجرد أن يكونا معاً . . أن تتلامس أصابعهما . . تتلاقى نظراتهما . . يلقي كل منهما برأسه على كتف الآخر ويغيب عن العالم كله آمناً مطمئناً .

كأنهما قطبان مشحونان يسري بينهما تيار صاعق . . تيار الحب . . إذا توقف أحدهما امحى هذا التيار وبدا ميتاً خالياً من الحياة .

وهما صارا أسعد زوجين في العالم . . لا يصدق من يراهما أنهما زوجين . . ففي عيونهما عشق مراهقة ، وفي لمساتهما تلهف خطيبين ، وفي تلاقيهما حنين وشوق عاشقين لا ينقطع . .

صارت لغة العيون حديثهما . . حتى لغة الإشارات استغنيا عنها . . لم يعودا في حاجة إليها . . نظراتهما صارت حروف وحديثاً لا ينتهي .

وفي صباح اليوم التالي للزواج ذهبا إلى قبر والدة عصام . .

كانت ياسمين هي التي طلبت ذلك وألحت عليه . . وحملت باقة ورد وضعتها فوق القبر ، ووقفت تذرف الدموع . . دموع حقيقية بكتها على أم لم ترها ولم تعاشرها . . ولكن حبها لعصام دفعها لأن تشاركه لحظات الألم والفراق . . وأن تذرف دموعاً صادقة . . صارت تلك المرأة الغريبة عنها أماً . . لأنها كانت والدة حبيبها .

وقالت عيناها له أنها تعتبر أمه هي أمها . . وأنهما لن ينقطعا عن زيارة قبرها والدعاء لها باستمرار .

وغادرا المكان وهما يشعران بحنين وسكينة عجيبتين . كأنما شملتهما روح الأم برضاها في عالمها الآخر .

وأرادا أن يعوضا أيام الحرمان . . فذهبا إلى كل مكان متشابكي الأيدي . . زارا كل الأماكن التي اشتاقا إليها . .

انتهزا كل فرصة اجازة وسافرا إلى كل مكان . . وكانت أولى زياراتهما في شهر العسل إلى الإسكندرية . تحديداً إلى تلك البقعة من شاطئ سيدي بشر .

كان الوقت ليلاً والسكون يشمل الشاطئ . . والرياح زادت حدتها والجو أكثر برودة . . ولكنهما جلسا متشابكي الأيدي فوق نفس الصخرة يتابعان الأمواج المتكسّرة على الشاطئ تدغدغ أقدامهما في حنو ورفق .

أقبل الطائر الأبيض الكبير يرفرف بجناحيه . . طائر الصمت . . وحلق فوق رأسيهما كأنه يباركهما . . ثم انحدر بعيداً إلى قلب السماء وهو يطلق صيحة عالية ليلحق برفيقته التي كانت تنتظره في مكان ما .

وبعده عاد السكون يلف كل شيء حولهما . . سكون أثير محبب .

الصمت أصبح عالمهما . . ولكنه صمت عامر بمشاعر فياضة كلهب النيران . . كشرر الكهرباء يتقد ويتوهج بصوت ما . .

لم تكن حياتهما سهلة في البداية . . فالشقة المفروشة كانت ضيقة ، وجيرانهما كانا فضوليين . . ووجود زوجة خرساء في الجوار كان مثار حديث لا ينقطع لدى الآخرين . . وعمل عصام في البنك كان يستغرق منه وقتاً طويلاً يغيب فيه عن المنزل . . كان في حاجة إلى أن يثبت ذاته وكفاءته بعيداً عن أي وساطة .

وجاءت فرصة ذهبية لياسمين لتعمل في البنك . . استطاع جلال أن يقتنص تلك الفرصة من مديره ، وجاء مهرولاً إلى عصام يعرض عليه الفرصة .

ولكن ياسمين هزت رأسها رافضة دون أن تغادر الابتسامة شفتيها ، ولم يناقشها عصام . . كان يرتضي دائماً ما ترضاه . . وكان يريد أن يمنحها فرصة عمل في البنك تثبت فيها ذاتها وقدرتها . . ولكي لا تعاني من الوحدة أثناء غيابه في عمله . وعندما غادر جلال المكان همست أصابعهما في حنان تقول له : هل تدري لماذا رفضت العمل؟

فسألتها عيناه : لماذا؟

فأجابته اصابعها وهي تقفز فرحاً : ذلك لأنني حامل .

قفز عصام من السعادة . . راح يصرخ فرحاً . . كطفل

صغير شقي راح يدور في أركان الشقة الصغيرة . . يمسك بأصابع زوجته ويقبلها في لهفة . . يضع أذنه مكان ابنه يتسمع صوتاً ما . . تترقرق دموع السعادة في عينيه بفرحة طاغية .

وقال في صوت متهدج بعد أن أعياه الفرح : سوف أمنح ابني كل أسباب السعادة ، لن أقسو عليه أو أفرض عليه ما لا يريد . . سأتركه يختار لنفسه الطريق الذي يريده . . ولن أحرمه من حناني أبداً .

فسألته عينا ياسمين : وإذا كانت طفلة؟

فأجابتها عينا ياسمين : سأحبها مثلما أحبك .

وأضافت أصابعه : منذ الآن يجب أن نؤمن مستقبل ابننا . . ويجب أن يجيء إلى العالم في مكان يمتلكه بالفعل ولا يشعر فيه بغربة .

وهكذا خلال شهور قليلة تمكن من امتلاك شقة صغيرة حصلا عليها بالقسط . . وأثثاها أثاثاً متواضعاً . واقتربت أيام الولادة فحصل عصام على اجازة من عمله ، وبقي بجوار ياسمين يلبي أدنى إشارة من أصابعهما . . ويضن على نفسه بأي لحظة راحة .

وزارهما جلال ذات يوم دون موعد سابق.

وفتح عصام الباب فوجد صديقه وقد تشابكت أصابعه مع فتاة رقيقة ذات حسن هادئ.. تشع عيناها ألفة وطيبة وتسكن ملامحها سكينة وقناعة.

وقال جلال لصديقه: أقدم لك الآنسة حنان.. خطيبتي.

تنبه عصام إلى الدبلتين الذهبيتين في أصابع يدهما اليمنى.. وقال لصديقه عاتباً: تخطب هكذا دون أن تخبرني؟

ولكن جلال قال معتذراً: أنا لم أعرف حنان إلا منذ أسبوع واحد أثناء اجازتك.. وأحسست أن كل لحظة من عمري تضيع وأنا بعيد عنها هي خسارة لا تعوض.. فلم أحتمل الانتظار.

وتخضّب وجه حنان بالحياة، وتوردت مشاعرها البكر بسعادة عذبة..

وأقبلت ياسمين تحتضن حنان وترحب بها..

وتساءل جلال همساً لعصام: ما رأيك في خطيبتي؟

أجابه عصام: إنها رائعة.. وأرى من نظراتها لك إنها تحبك بنفس القدر..

قال جلال متنهداً: لقد تعلمت منك درساً يا صديقي العزيز

في نعمة الحب. . وأنا الآن غارق في مشاعر سعادة لا نهاية لها.

وأكمل في حنان: إن والد حنان عامل بسيط يسكن في حي متواضع ... وفي السابق ما كان يمكنني أن أختار فتاة بمثل هذه المواصفات فقد كنت أريدها غنية رائعة الجمال. . ولكنك أعطيتني درساً لا يقدر بمال. .

فاحتضن عصام صديقه وربت على كتفه في ود عميق. .

وبعد لحظة تساءل جلال: وكيف حال والدك. . ألم يحاول الاتصال بك؟

أجابه عصام متألماً: أنا لا أعرف شيئاً عنه. . فهو لم يحاول حتى السؤال عني تليفونياً. . وخشيت أن ذهبت للاطمئنان عليه أن يظن أنني جئت إليه محتاجاً أو لطلب المال. . ولهذا انقطعت عنه برغم ألمي بسبب ذلك.

هز جلال رأسه في صمت ولم يعقب. . وساد جو العشاء مرح بريء.

ومرت أيام قليلة. . ثم حانت لحظة مجيء الطفل المنتظر.

وراح عصام يذهب ويجيء أمام باب حجرة العمليات بالمستشفى والقلق يكاد يعصف به. .

ثم خرجت إحدى الممرضات أخيراً من داخل حجرة الولادة لتقول له باسمة : لقد رزقك الله بطفل ذكر جميل .

تساءل عصام في لهفة : ووالدته؟

أجابته الممرضة : إنها في أحسن حال .

فرفع عصام يديه للسماء شاكراً وعيناه مبللتان بالدموع .

وكان الطفل وسيماً . . له شبه غريب بجده . . وتبادل عصام وياسمين نظرة حنوناً وهمست أصابعهما تقول له : سوف نسميه باسم جده .

فتحت عينا عصام عن شكر عميق ، وهمست أصابعه تقول لها : أنت سيدة عظيمة .

وما كاد الاثنان يعودان إلى المنزل ، حتى دق جرس التليفون في إلحاح كأنه نذير بنبأ سيء .

ورفع عصام سماعة التليفون ، فجاءه صوت مدير أعمال والده في لهفة وانزعاج قائلاً : دكتور عصام . . أرجوك تعال الى المنزل بسرعة . . فوالدك مريض بشدة . .

وسقطت السماعة من يد عصام .

* * *

«العائلة»

إندفع عصام إلى داخل الشقة المشعة في الطابق العشرين تسبقه دموعه وأناته . . وعلى الباب قابله مدير أعمال والده فصرخ عصام به : ماذا حدث لأبي . . أخبرني بسرعة؟

فأجابه المدير منزعجاً : لقد كان يعاني في الفترة الأخيرة من بعض الآلام . . ومنذ أسبوع سقط في مكتبه فاقداً وعيه فنقلناه إلى المنزل ، وبعد أن أفاق رفض الذهاب إلى أي مستشفى أو أن يفحصه طبيب . . ولكن بعد أن ساءت حالته هذا الصباح استدعينا له طبيباً خاصاً وهو يقوم بفحصه الآن .

انفجر عصام في غضب وحشي قائلاً : كيف لم تخبروني بمتاعب والدي من قبل؟

كانت هذه تعليمات والدك ، فقد حذرنا من الاتصال بك ،

وخشينا من مخالفتها ، ولكن بعد أن ساءت حالته لم يكن هناك مهرب من إبلاغك بما حدث .

عض عصام على شفتيه قهراً وألماً ، وقال كأنما يحدث نفسه: إنني الملوم . . كان يجب عليَّ السؤال عن والدي والاطمئنان عليه ، ولو قابل السؤال بطردي . . إنني الملوم ولا أحد غيري .

* * *

وظهر الطبيب مغادراً حجرة نظمي بك ، فاندفع عصام إليه وعيناه غارقتان في الدموع قائلاً : أرجوك أخبرني كيف حال أبي؟

زم الطبيب حاجبيه وقال مقطباً : لا أنكر سوء حالة نظمي بك . . يبدو أنه في حالة متطورة من المرض .

أحس عصام بالدنيا تدور به وأن ساقيه لا تقويان على حمله ، وتساءل لاهثاً : أي مرض؟

أجابه الطبيب : انه مصاب بمرض نادر في المخ ، يتسبب في أن تضمر بعض خلاياه ، وبرغم أن المريض يكون في صحة

جيدة، ولا تبدو عليه علامات المرض غالباً، إلا أنه يعاني من بعض المتاعب التي لا يتنبه إليها الا متأخراً كما حدث مع والدك.

قال عصام في حيرة:

- لست أفهم ما تقصده.

- لقد أصيب مخ والدك للأسف بضمور في بعض مناطقه الخاصة بحاستي السمع والنطق.. وكان التأثير الأشد في حاسة السمع فقد فقدها تقريباً.. أما القدرة على الكلام فأعتقد أنه في مرحلة متوسطة الآن.. ولن يمر وقت طويل قبل أن يصبح غير قادر على النطق أيضاً.

شحب وجه عصام وتراجع إلى الوراء كأنه تلقى لطمة..

وواصل الطبيب قائلاً: إن كل ما وصفته له من علاج هو مسكنات فهذه الحالة لا علاج لها.. وعادة فإن نسبة الشفاء منها تكون واحداً في الألف، وبمثابة المعجزة التي لا تتكرر..

وصاح عصام في صوت مرير: أبي.

واندفع إلى حجرة والده ودموعه تغرقه.

كان والده راقداً في فراشه وهو يحدق إلى السقف وعيناه مبللتان بالدموع، واندفع عصام إليه وهو يشهق بالبكاء..

وقبَّل أصابع والده وهو يقول له : سامحني يا أبي . . لم أكن أعرف أنك مريض وإلاّ لأتيت منذ اللحظة الأولى . . إنني أتمنى الآن لو كنت أستطيع أن أزيح عنك مرضك ولو احتملته بدلاً منك .

حدق الأب في عصام وهو يراقب شفتيه . . كأنه يقرأ ما تنطق به الشفتان بعد أن خذلته أذناه . .

وأغمض عصام عينيه في ألم حاد قائلاً : إنني لا أكاد احتمل ما أراه أمامي الآن يا والدي .

ولكن نظمي بك ربت فوق رأس عصام في حنان ، وهمس يقول في صوت متقطع : كيف حالك يا ولدي . . وكيف حال زوجتك؟

أجابه عصام في صوت متهدج :

ـ نحن بخير يا والدي . . ولم نكن نعلم .

ـ أعرف ذلك فقد أعطيت أوامري المشددة بألا يخبرك إنسان بشي عن متاعبي . . كنت أكابر وأقاوم وأظن أنني سأهزم المرض . . ظننت أن مالي الكثير سيدفع عني شر

المرض . . وخشيت أن أظهر أمام الناس بمظهر المهزوم فأخفيت الحقيقة عن الجميع ، حتى سقطت برغمي .

ـ ستشفى يا والدي . . ستشفى بإذن الله .

ـ أنا أعلم أن مرضي لا شفاء له . . وأنا أستحقه فكم كنت قاسياً عنيداً لا يهمني غير جمع المال حتى لو تسبب هذا المال في أن أفقد كل من حولي .

ومسح عينيه وهو يقول : فلقد ظننت أن مالي قادر على علاج أمك . . دون أن أعرف أن مالي هو سبب مرضها وهي تذوب وتذوب كل يوم عندما تراني لا أهتم إلا بجمع المال ، ولا أتذكر حتى السؤال عنها . . بعد أن أبعدت عنها ابنها الوحيد . . من أجل شهادة كنت أريدها لنفسي قبلك . . وأنت يا ولدي . . أردتك أن تكون خادماً لهذا المال . . فأجبرتك على دراسة لا تهواها وشكلتك كما أريد . . وعندما طالبتني بأبسط حقوقك في أن تختار رفيقة حياتك أبيت عليك ذلك واستكبرت . . وحتى هؤلاء الفتيات اليتيمات لم تأخذني بهن شفقة أو رحمة وعاقبتهن بما لا ذنب لهن فيه لإرضاء جبروت المال والتسلط بداخلي . . فطردتهن من أعمالهن ومنعت المال الذي كنت أساعد به بقية فتيات الملجأ .

وقال عصام في أسى :
- كفى يا أبي . . كفى .
ولكن الأب بدا عليه كأنه لم يسمع ما قاله عصام فواصل في مرارة :
- وزوجتك المسكينة البريئة . . رفضتها بسبب شيء لا ذنب لها فيه . . وقسوت عليها ولم تأخذني بها أي رحمة وعايرتها بعاهتها . . فلم يختر الله لي مرضاً ، إلا ذلك المرض الذي أفقدني حاسة السمع ، وأوشك أن يشل لساني . . فكأن الله العادل الرحيم أراد أن يجعلني أتذوق طعم الحياة والآلام التي عانتها هذه المسكينة دون أن تفيدني كل ملاييني بشيء أو تدفع عني هذا المرض . . والآن أدرك كيف كان عذابها وآلامها . . وكيف أن الإنسان لا يملك من أمر نفسه شيئاً .
أخفى عصام وجهه عن أبيه هاتفاً في مرارة :
- كفى يا أبي كفى أرجوك .
لم يسمع الأب شيئاً . . ولكنه أدرك رجاء ابنه فقال في صوت باك مضطرب :
- دعني يا ولدي أتحدث . . فهذا الحديث يخفف عني . . دعني أكفر عن ذنبي بما أقوله قبل أن أفقد القدرة على الحديث

أيضاً ولا أستطيع حتى أن أبوح بما في صدري . . لقد ظننت أنني بمالي سأتمكن من الحصول على الرعاية اللازمة . . وشراء حنان وعطف أقرب المقربين لي . . ولكنني اكتشفت أن العواطف لا تشترى بالمال . . وأنني لو منحت كل من حولي الملايين ، فإنهم لن يبادلوني بها مشاعر حب حقيقية وصادقة . . لأنني لم أحبهم في يوم من الأيام حباً حقيقياً . . فكما قلت لي يا ولدي من قبل . . إن المشاعر الصادقة لا تشترى بالمال . . وأثبتت لي الأحداث أنك على حق . . وأنني أضعت نصف عمري سعياً وراء سراب هو المال . . لم يبدد ظمئي عندما احتجت إلى جرعة شفقة أو عطف .

وتوقف الأب عن الحديث وهو يلهث وصدره يتهدج بانفعال عظيم وعيناه مصوبتان نحو باب الحجرة .

ورفع عصام عينيه من كفيه الغارقتين في الدموع . . وألقى ببصره نحو الباب فشاهد ياسمين واقفة في مدخل الحجرة تحمل طفلهما فوق ذراعيها وتتشبث به قريباً من صدرها .

واستدارت عينا نظمي بك في ذهول إلى عصام ، وتمتمت شفتاه قائلاً : ابنك؟

قال عصام بفرحة : ولقد أصرت ياسمين على أن تسميه

باسمك يا أبي .

بدا كأن أذني نظمي بك التقطتا ما قاله عصام ، فارتعشت شفتاه باكيتين وهو يقول : آه يا أحبائي . . كيف طاوعني قلبي على أن أبعدكما عني لحظة واحدة . كيف أبعدت عني بإرادتي من أحبوني ، واستبقيت من أحبوا مالي؟

ومد الأب يديه نحو الطفل بين كفي جده وعيناها غارقتان في الدموع حزناً وإشفاقاً .

احتضن الجد حفيده . . ووضعه مكان قلبه . . ترك دموعه تنسال ، وفوق كفي الطفل الوليد . . وهمس يقول في رجاء وعيناه تحتضنان حفيده وولديه : لا تتركوني وتذهبوا . . ابقوا معي . . ففي وجودكم أحسست بالأمان والحب الذي فشل كل مالي في أن أحصل عليه من قبل .

جثا عصام على ركبتيه وقبل أصابع والده قائلاً : لن نتركك يا أبي أبداً . . وسنبقى بجوارك إلى أن تشفى بإذن الله وتعود كما كنت . . وسنصير منذ هذه اللحظة عائلة كاملة أنت رأسها وتاجها .

واقتربت ياسمين من الأب . . ومسحت بكفها دمعة سالت من عيني الأب ، وارتعشت شفتاها كأنها تمنحه بكلماتها التي

لم تنطقها، كل التعزية التي لم يمنحها له إنسان. . والحب الذي ضن به عليه الآخرون. . وحتى الطفل الوليد ابتسم ابتسامة بريئة. . وتسللت الابتسامة كمفعول السحر إلى قلب الجد. . فابتسم أيضاً وهو يشعر بسعادة، لم يحسها من قبل أبداً. . ولا كانت كل ملايينه قادرة على أن تهبه مثلها.

* * *



طائر الصمت

عاد عصام من رحلة اغتراب في امريكا ليتغرب اكثر في بلده. ويشعر بالوحدة وجراح القلب، برغم ملايين والده والحياة المرغدة السعيدة التي وفرها له..

كان كطائر الصمت، يجوب الآفاق ويسكن الشواطئ المهجورة دون ان يجد رفيقاً أو سلوى.

وعندما وجد عصام من هفا إليها قلبه انقلبت حياته إلى مصاعب لا نهاية لها. فكيف هزم طائر الصمت احزانه ؟

دار الجيل
بيروت